كتاب الهلال

مصطفى كامل

أضواء جديدة على حياته

نجيب توفيق



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبرى أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB AL-HILAL

العدد ٣٦٥ ـ رجب ١٤٠١ ـ مايو ١٩٨١

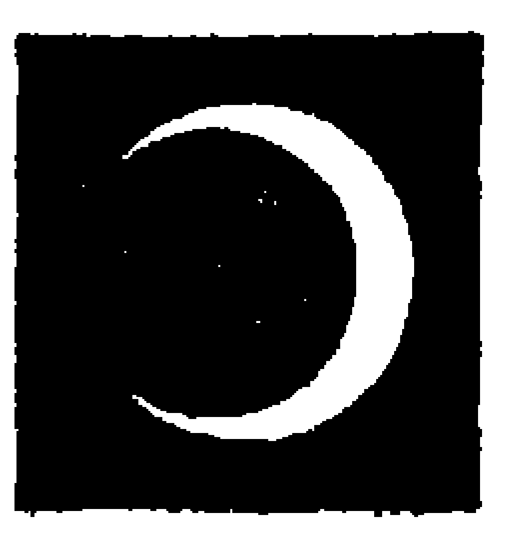
No. 365 — May 1981

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ـ ١٢ عددا ـ فى جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى • وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى • وفى سائر أنحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى •

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج• م• ع• بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغــــلاف بريشـــة :
الفنانة : سميحة حسنين

نجيب توفيق

مصطفى كامل

أضواء جديدة على حياته

دار الهلال

لو انتقل فؤادى من الشمال الى اليمين ، أو تحولت الأهرام عن مكانها المكين ، لما تغير لى مبدأ ، ولا تحول لى اعتقاد ، بل تبقى الوطنية رائدى ونبراسى ، ويبقى الوطن كعبتى ومجده غاية آمالى .

من خطبته فى ١٩٠٦/٥/١٧

مقدمة

قال كارليل : هؤلاء الرجال العظماء ، سواء كانوا شعراء أو مصلحين أو رجال أعمال أو رجال دين ، فانهم جميعا يحملون بين جنوبهم هذا السر الغامض ، سر العظمة والبطولة ، الذى تنزل عليهم وأودع قلوبهم ، فليسوا هم من مخلوقات الظروف ، وصنع الأحداث ، وانما هم الذين يخلقون الظروف ويصنعون الأحداث ويملون ارادتهم ويحققون مثلهم العليا .

ثم يقول أيضا : مثل هذا الرجل هو ما ندعوه بالرجل الأصيل الطريف ، وهو رسول موفد من المجهول اللانهائى يحمل الينا الأخبار والبشائر ، يحملها الينا مباشرة من الحقيقة الداخلية الباطنية للأشياء ، وهو يعيش متصلا اتصالا دائما بهذه الحقيقة ولا تستطيع الاشاعات الباطلة والتخرصات الكاذبة أن تحجبها عنه ، وانه مقبل من قلب الوجود النابض ، وهو جزء من الحقائق الأولية للأشياء .

ومثل هذا الرجل العظيم أو البطل لا يستطيع جهل العصر الذى يظهر فيه ، ونقائصه وعيوبه أن يشوه رؤيته الأصيلة أو يمحو نضارتها وهو قد وصل الى حقيقة مجدية تهب القوة والحياة » .

هذه الأقوال قالها كارليل فى مقدمة كتابه عن رسائل

كروميل الزعيم الانجليزى الشهير وهى ايضــا تنطبق على الزعيم المصرى الخالد مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطنى ، لأنه الزعيم الوحيد الذى لم تلده الظروف ولم تبعثه المطامع وستظل ذكراه على تراخى الحقب وتوالى الأجيال أنوط بالقلب وأعلق بالــذاكرة ، فزعامته أشبه بأصحاب الرسالات فى تهيئة الفطرة وثبات العقيــدة ، وعصمة النفس ، واختيار القدر .

وكانت دعوة الأفغانى قد جمعت من ومضات الأذهان النيرة شعلة أضاءت جانب الطــريق فسلكه العرابيون ، ولــكنهم لم يــكادوا يبعــدون حتى أدركهم الظــــلام فى (التل الــكبير) فلا يصح فى العقل اذن أن نقول ان مصطفى كامل كان أثرا للأفغانى أو أحمد عرابى .

لقد وعد وهو طالب فى المدرسة الثانوية ، حينما سأله وزير المعارف على باشا مبارك عما يعتزم أن يعمله بعد تخرجه فأجابه « ان أرفع الرجال شأنا من يحرر بلاده وسأكون أنا ذلك المحرر الذى يكتب ويخطب حتى ترفع الأغلال من عنق مصر » .

وقد نفذ هذا الوعد وســعى طــول حياته فى سبيل تحقيق هذا الهدف .

ومصطفى كامل لم تبعثه المطامع ، لأنه أدرك وهو فى طراوة الشباب ، زعامة الأمة وثقة العرش ، ورضا الخلافة وخصومة المحتل ، وكان فى مقدوره اذا شاء أن يستغل هذه القوى فى سبيل الثراء والحكم ، ولكنه زهد فى ذلك زهادة الحكيم ، فعاش للمبدأ والفكرة ، ومات القدوة والعبرة .

وقد قضى الصدق فى الجهــــاد ، والاخلاص للمبدا

والثبات أمام اشد العقبات . على مصطفى كامل ذى البدن العليل ، أن يحرك ساكن شعبه بوجيب قلبه ، ويذكى جمود جيله بحرارة دمه ، ويضىء ظـلام وطنـه بوميض روحه ، ثم يموت رضوان الله عليه ميتة الشهداء .

وبعد ثلث قرن من وفاته احتفلت البلاد حكومة وشعبا باقامة تمثاله فى أحد ميادين العاصمة وبعد نصف قرن من وفاته احتفل بتشييع جثمانه مرة اخرى حين نقل من مدفن الأسرة الى الضريح الـكبير الذى شيدته الدولة بميدان صـلاح الدين بالقلعة ، واشتركت جميع طوائف الشعب والجيش والشرطة فى موكب تشييعه .

وبعد سبعين عاما من وفاته ، فى عهد الرئيس المناضل انور السادات أعيد تأسيس الحزب الوطنى ونال الأغلبية فى الانتخـابات وأصبح هو الحزب الحـاكم بالبـلاد . ولعمرى ما نال زعيم فى الشرق مثل هـذا التـكريم والتمجيد .

كلمة السيد الرئيس
محمد أنور السادات
في إعادة تأسيس الحزب الوطني

قال الرئيس أنور السادات بمناسبة الاجتماع الأول للجنة المؤقتة للحزب الوطني الديمقراطي في ١٤ اغسطس ١٩٧٨ : « نحن نبدء تجربتنا وديمقراطيتنا من تراث طويل بدأ في التاريخ القريب في أوائل القرن التاسع عشر بثورة عمر مكرم الشعبية ثم توالت الأحداث بعد ذلك وسار الشعب في عهد الخديو اسماعيل وابنه الخديو توفيق مطالبا بحقوقه بل مطالبا بالديمقراطية والدستور الى أن كانت ثورة عرابي سنة ١٨٨٢ ، وحين انتكست هذه الثورة بفعل الخيانة ، لم ينتكس كفاح شعبنا أبدا بل قام مصطفى كامل ليؤسس الحزب الوطني » .

« من هنا فان اختيار تسمية الحزب الوطني هو فخر لنا جميعا . فمصطفى كامل هو الشاب المصري الذي كافح وناضل في العقد الأخير من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين ، بريطانيا وهي امبراطورية لا تغيب الشمس عن أملاكها » .

ويناضل مصطفى كامل عن الشعب وحين يقع حادث دنشواى يقيم الدنيا ويقعدها وهو الانسان الأعزل ولكنه المؤيد من الشعب كله .

من هنا جاءت توصيتي أن نكرم من بدأ في أوائل هذا القرن بالافصاح وترجمة مشاعر الشعب في كفاح استمر فيه الى أن مات وهو شاب يدافع عن مصر بعد أن قهر الامبراطورية واضطرت أن تسحب ممثلهـــا ومندوبها السامي من مصر ، أذعانا لارادته ، عقب الحملة العنيفة التى قام بها فى أوروبا بعد حادثة دنشواى .

ومات مصطفى كامل ثائرا لم يملك الاملاك ولم يستغل السياسة لـكى يـكون له مغنم .

كان الحزب الوطنى ولا زال ، وسيظل بعون الله عنوان الطهارة الثورية وجاء بعده محمد فريد وضرب أروع المثل ــ وهو من أغنى اغنياء مصر ــ فقد كافح وناضل ثم نفى وشرد ومات فى المنفى بعد أن باع ملابسه وعصاه فقيرا ولكنه مات مليئا بكل القيم والمثل .

وقد تحقق الآن ما قاله شاعر النيل حافظ بك ابراهيم من قصيدته التى القاها فى احتفال مدرسة مصطفى كامل بالطلبة المتفوقين فى نوفمبر ١٩٠٦ :

لك الله يا (مصطفى) من فتى
كثير الأيادى كثـير العـــــدا

اذا ما حمـــــدتك بين الرجال
فأنت الخليق بأن تحمـــــدا

سيحصى عليـــك سجل الزمان
ثنـــاء يخلد ما خـــلدا

ويهتف باســـمك أبنـــاؤنا
اذا آن للزرع أن يحصـــدا

مـــــولـــــده

ولد مصطفى كامل فى سنة ١٨٧٤ وكان عمره ثمانى سنوات عندما احتل الجيش الانجليزى القلعة فى الحى الذى نشأ فيه .. سنوات ثمان تسمى سنوات الخطابة ، لأن الثورة قد اشتعلت اشتعالها الأكبر قبل ختامها . أما الخطابة فقد كانت فى أوجها عند مولد الزعيم وبلغت قمة ذلك الأوج عند دخول جيش الاحتلال .

كان حى الصليبة الذى ولد فيه الزعيم الخطيب أحد الحيين الكبيرين اللذين تنافسا على الوطنية القاهرية عدة اجيال ، وكان هذا الحى أحفل بمعالم الحركة الوطنية من الحى الآخر الذى ينافسه « الفتوة » على عهد الحملة الفرنسية ، لأن حى القلعة التى كانت مسكن الوالى ، ثم صارت معسكر الجيش المحتل بقيت الى جوارها ساحة المحافل القومية من ركب المحمل الى ركب الولاية بعد مبايعة الأمير ، الى ركب العروض العسكرية .

وكانت مساجد هذا الحى أعمر المساجد بالخطابة الثورية ، ولم يكن فى القاهرة مسجد أعمر منها غير الجامع الأزهر فى تلك الفترة ، وهو فى المكان الأوسط بين طرف الصليبة من ناحية وطرف الحسينية من الناحية الأخرى .

كان مصطفى كامل فى الخامسة او السادسة يوم كان

« عبده الحمولى » يسأل : اين نسمعك هذه الليلة ؛ فكان يجيب مازحا : أنا الليلة سهران مع عبد الله النديم فى فرح آل فلان ...

ولد مصطفى كامل فى هذا العصر عصر الخطابة ، وشهد خطباء حى الصليبة فى الخامسة والسادسة . وهى سن التقليد والمحاكاة ، واستفاد من حى الصليبة أول نفحة من نفحات « الوطنية المحلية » التى كانت وراء التنافس على بطولة القاهرة بين « فتـوة » الحسينية « وفتـوة الخليفة » ، وربما تعثر بين الحبو والعدو فى احدى تلك الوقعات التى تنتقل من ساحة الأزهر أحيانا الى جوار شيخون أو جوار قيسون .

... لأنه لم ينس هذه الحمية « المحلية » بعد أن وصل فى تعليمه الى المدارس التوجيهية ، وكانت دعوته الاولى انه دعا الى تأليف جمعية « الصليبة » فانتظم فيها نحو سبعين من المواطنين ، قبل أن يدعو الى تأليف الحزب الوطنى بعدة سنين ...

التربية الاجتماعية أساس زعامته :

كان والده المرحوم على محمـد أول خريجى مدرسة الخانكة الحربية سنة ١٨٣٤ فاشتغل معيدا بها ثم تنقل فى الوظائف العسكرية حتى عين قومندانا لأحد بلوكات المهندسين فى عهد عباس الأول ، واقـام لعائلته منزلا بشارع شيخون بالصليبة سنة ١٨٤٣ ، حيث ولد مصطفى كامل ، واحيل الى الاستيداع فى عهد اسماعيل ثم عين مرة أخرى مهندسا ملكيا بوزارة الأشغال حتى احالته على المعاش سنة ١٨٧٧ ، فجمع فى أعمـاله الحـكومية بين

الصبغتين الحـــربية والمدنية ، فلم يكن صلفا جامدا ، ولا لينا ضعيفا ، بل جمع بين الاستقـــامة والشـــهامة ونزاهة الأخلاق والحزم ، وعرف عنه اهتمامه بتنشئة بنيه ، وكان أحب أوقاته حين يقبع فى منزله، ويجمع حوله صغاره فى معظم الليالى ، يقص عليهم قصص الأبطال وعظماء الرجال ، ويقف معهم أمام مواقف المظمة والسمو فى سير أولئك الناس ، كما كان فى سـلوكه وأعماله قدوتهم الصالحة ، ومثلهم القويم .

لم يتوان يوما عن تفقد أبنائه واحدا فواحـدا ، أثناء حيـــاتهم المدرسية اليومية وزيارة مدارسهم ومناقشة مدرسيهم فى كل ما من شـــأنه مصلحتهم التعليمية والتربوية فكان بذلك والدا فريدا فى عصره يؤدى واجب الأبوة الحقة فى غير ما قسوة أو تفريط .

وكان شأنه مع ولده مصطفى كامل أن استحضر له شيخا يلقنه فى المنزل مبادىء القراءة والكتابة ويحفظه القرآن الكريم ، حتى اذا ما بلغ السادسة أدخله مدرسة والدة عباس الأول الابتدائية بالصليبة ، وبدا على مصطفى الميل المتوارث الى علم الحساب والرياضيات ولا غرو فى ذلك فوالده المهنـــدس النابغ ، وبقى فى هذه المدرسة عامين وفجأة حدث حادث ذو بال لهذا الناشىء الصغير ، قد يمر على كثير من التلاميذ فى سنه ويعرف به أولياء أمورهم فلا يحفلون به الا المرحوم على محمد ...

وجه المدرس سـؤالا الى أحد التلاميذ .. فعجز عن الاجابة .. فأسرع مصطفى كامل بالاجابة بدلا عنه .. فما كان من المدرس الا أن انفجر تعنيفا وتأنيبا له ... فاستنكر الطفل هذا التأنيب ، وثارت الكبرياء الجريحة

.. والكرامة البريئة وهي بعد في مهدها .. وزاد الأمر عن حده حين عاقبه المدرس بحبسه ساعتين .. فشكا الى والده هذا العسف من مدرسه فاهتم الوالد بالأمر ، ولما تحقق صدق ما حدث ، نقله فورا الى مدرسة السيدة زينب الابتدائية ..

ولنقف أمام هذا الحادث قليلا ، لأهميته ، فلو توانى الوالد فى تحقيق ما رواه عليه ولده ، أو أهمل الأمر ، لأصيبت هذه النفس الحساسة بصدمة كبيرة ، ولاضطرب كيانها النفسي ، ولأصيبت حالته النفسية اصابة مدمرة ، لن تساعده فى التفوق والاقبال على حياته العلمية والوطنية فيما بعد ، ولقتلت معه الأحاسيس الكريمة والمشاعر النبيلة ولانطفأت جذوة الحماس فى مهدها ولدوت المواهب ولنشأ فردا عاديا يعيش بين ملايين المواطنين ، ولحرمت مصر جهاد هذا الشاب الخالد .

وأدركت والده البر الوفاة سنة ١٨٨٦ وهو فى هذه المدرسة فحزن لوفاته حزنا جما وكفله من بعده أخوه الأكبر حسين واصف (حسين باشا واصف وزير الأشغال الأسبق توفى سنة ١٩٤٢ فطلب منه أن ينقله الى مدرسة الغربية الابتدائية لقربها من منزل جده لأمه فأجابه أخوه الى طلبه .

وواصل الدرس فى هذه المدرسة حتى نال شهادة اتمام الدراسة الابتدائية سنة ١٨٨٧ ، وأقامت المدرسة حفلا فخما لتوزيع الشهادات على الناجحين دعت اليه الخديو توفيق وكبار رجال حاشيته والوزراء ورهطا من علية القوم .

ثم حدث فى هذا الاحتفال الكبير حدث عجيب ، دل

على ما تنطوى عليه نفس هذا التلميذ الفريد (فى تاريخ أمته) .. كان من نظام الحفل أن يتقدم الطلبة الناجحون للمثول بين يدى الخديو واحدا فواحــدا . وقد أعــد الطلبة لهذا الفرض ، فلقنوا العبارات المناسبة فى هذا المقام ، ومنها انه فى حالة ذكر اسم الطالب أو اسم والده يجب أن يكون مسبوقا بكلمة « عبدك » وأصغى مصطفى كامل كما أصغى بقية زملائه لهذه التعليمات وان اختلف عنهم فى طريقــة تنفيــذها ؟ .. ونفذت المدرسة برنامج الحفل بدقة ، وجاء دور الطلبة الناجحين للمثول بين يدى الخديو ، ونفذوا التعليمات بدقة الا مصطفى كامل ... فحين سأله الخديوى عن أسمه ، أجاب باعتداد وأنفة مصطفى كامل .. غير مسبوقة بكلمة عبدك ، وعن اسم والده أجاب أيضا : المرحوم على أفندى محمد ، فعقب الخديو عن سبق معرفة باخلاص والده وكفــاءته .

والضابط من خلف التلميذ الصغير يكاد ينفجر من الغيظ يهمس اليه أن يذكر كلمة « عبدك » قبل كل اجابة . فتجاهله مصطفى كامل ، وظن الضابط أن الطالب نسى من رهبة المقام أن ينفذ ما أمر به .. وانفض الحفل . وغادر الزائرون المكان .. واستدعى مصطفى كامل أمام الضابط ومدرسى المدرسة ، ونوقش فى أسباب عدم طاعته وتنفيذ ما كلف به فأجاب بكل شجاعة وجرأة : كيف تطلب منى أن أذكر أمام الخديو كلمة « عبدك » وما كنت أنا عبدا ولا كان أبى كذلك .. ولو قلت غير الحق كنت كذابا ومحتالا وحاشا لى أن أكون كذلك .
فأرتج على الضابط ولم يستطع أن يغالب دهشته ، كيف ينطق تلميذ صغير لم يتعد عمره الثالثة عشرة بهذه العبارات ولا يستطيع أن يتفوه بها الكثيرون ممن هم أكبر منه سنا

ومقاما !! .. وأذاع هذا الأمر بين كبار رجال التعليم في عهده ، وهو في حيرة وعجب ..

ثم دخل المدرسة الخديوية سنة ١٨٨٧ . فاستلفت انظار مدرسيه بشجاعته ، وقدرته على التعبير عن رايه مهما كان هذا الرأى ، وبدت مواهبه الكامنة في الظهور والاعلان عن نفسها ، فكان كثيرا ما يقف خطيبا في الفصل ، معبرا عن رأيه في أسلوب قوى وعبارات سليمة وفي السنة الثانية الثانوية زار المدرسة الخديوية (المرحوم على مبارك) وزير المعارف ، ولما دخل فصله ، طلب من المدرس (وكان أستاذ اللغة العربية) أن ينتخب طالبا ممتازا في الالقاء ليتحدث اليه ، فاختاره المدرس من بين طلبة الفصل جميعا ليقف خطيبا امام الوزير الكبير ...

سأله الوزير أن يتحدث عن آماله بعد استكماله دراسته ، وماذا يختار من وظائف ؟ فوقف مصطفى كامل في اعتدال واعتداد ، يتحدث عن ذلك في غير ما رهبة ولا اضطراب وقال :

« لقد تلقنت مما كان يرويه على المرحوم والدى عن كبار الرجال وأعاظم التاريخ ، وما درسته على أستاذى مدرس التاريخ من سير الفاتحين والأبطال ما أيقنت منه أن أعظم الرجال شأنا من يحرر وينقذ أمته من ربقة الذل والاستعباد ، وأنا سأكون ذلك المحرر الذى يكتب ويخطب ، وأضرب الأمثال للناس ، كما كان يصنع أستاذى مبشرا بما في الحرية من العزة والحياة ، ومنذرا بما في الذل من الموت والعار » .

فأكبر الباشا ما سمع وأثنى على الطالب الفريد

وشجعه بعبارات التقدير . وعطف عليه ، وصار يتابع اخباره ، ويدعوه الى منزله ويقدمه الى جلسائه من العلماء واقطاب البلاد . ويناقشه أمامهم فى المسائل العلمية والاجتماعية ، ويثنى على اجاباته وآرائه امامهم . مما اكسب الناشىء الصغير شخصية قوية ، معتدة بذاتها ساعدته فى حياته المستقبلة ، حينما مارس جهاده السياسى .

وفى أثناء دراسته بالمرحلة الثانوية اسس « جمعية الصليبة الأدبية » وتعلقت نفسه من ذلك الحين بالخطابة والكتابة والأدب ، فكان يقف فى الجمعية خطيبا فى مساء كل جمعة مرتجلا ما تمليه عليه البديهة ، وكانت اول خطبة ألقاها فى موضوع « فضل الجمعيات فى العالم » وأخذ يراسل الصحف من ذلك الحين ، وحين حصل على شهادة الدراسة الثانوية سنة ١٨٩١ كتب الى شقيقه على فهمى كامل فى ١٢ يوليو سنة ١٨٩١ يقول : (لقد عزمت على الالتحاق بمدرسة الحقوق ، لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ، ومعرفة حقوق الأفراد والامم .. وعزمت كذلك على تأسيس جمعية احياء الوطن) . وهكذا أخذ الناشىء الصغير يمهد لنفسه طريق الاعداد والتعليم لكى يضطلع بعمله السياسى العتيد ، ومن ذلك نتبين ملامح العبقرية فيما اعده لنفسه ، لكى يحقق آماله .

وفى سنة ١٨٩٢ تعرف بصاحب الأهرام تقلا بشارة بواسطة صديقه الشاعر خليل مطران فاعجب به وافسح جريدته لينشر فيها رسائله الوطنية . وفى أكتوبر من هذا العام رغب اليه صديقه فؤاد سليم أن يتم دراسته بمدرسة الحقوق الفرنسية ليكونا معا بها ، فلبى دعوته

المؤثرات الأولى فى حيـــاة
مصطفى كامـــل (١)

لعل أول انسان استمد منه مصطفى كامل أول مقومات شخصيته الروحية ، هو والده كما ذكرنا ذلك آنفا فى تاريخ طفولته ، فقد كان المرحوم على افندى محمد من خيرة الآباء الذين يحسنون تربية أبنائهم ، وقد اتخذ من القصص الدينى والوطنى سبيلا لغرس الفضائل والمثل العليا فى نفوس أولاده ، حينما كان يجمعهم حوله كل مساء فى المنزل ، فـكان مصطفى كامل يلتقط كل هــذه الأقاصيص على لوحة ذهنه الحاد المتوقد ، فيضطرب لها خياله العصبى المشبوب ، ولما كبر قليلا وأتم دراسته القانونية أو فى غضون هذه الفترة أتيحت له فرصتان لم تتح لغيره أبدا ، الفرصة الأولى لقاؤه بالسيد عبد الله النديم مؤجج الثورة العرابية ولسانها النارى ، وخطيبها الشعبى الذى امتزجت كلمــاته الملتهبة بقذائف المدافع والبنادق ، ونقشت فكاهاته ولذعاته على أذهان الفلاحين، والفرصة الثانية هى أخذ الأيام بيده ، وفتحها له أكبر معهد سياسى وعلمى فى مصر آنذاك أعنى به الصــالون الأدبى الســـياسى بدار لطيف باشا سليم الحجازى ، والمنتدى الأدبى الذى كان يعقد فى دار على باشا مبارك ، وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل .

السيد عبد الله النديم :

عاد السيد عبد الله النديم من منفاه بفلسطين بعد ما صدر امر العفو عنه من الخديو عباس حلمى الثانى . واخذ يتنقل بين الاسكندرية والقاهرة زهاء شهرين يتعرف ما انتهت اليه أحوال البلاد ، وما استقرت عليه شئونها فى مدة غيبته ، ويقابل أصدقاءه القدامى من أعضاء الحزب الوطنى القديم ويطلع على ما آلت اليه البلاد ...

رأى البلاد مستساغة للذل ، خاضعة للاستعمار ، قد خيم اليأس على أرجائها ، وضرب على جميع طبقاتها من فلاحين ومدنيين ، جهلة ومتعلمين ، ولعله قد اعتراه اليأس من الجيل الذى عاصر الثورة وحطمته الهزيمة ، وهدم معنوياته الاحتلال ، بقتل روح المقاومة فيه فلم يكن أمامه من سبيل الا أن يضع أمله فى الجيل الجديد .

فصار يجمع الشباب المثقف حوله وأكثرهم من مدرسة الحقوق وعلى راسهم مصطفى كامل يجتمع بهم سرا فى منزل لطيف باشا سليم ، يصب فى آذانهم دروس الوطنية ، ويشرح لهم أسباب الهزيمة التى آلت اليها الحركة الوطنية ، وينفض عن الحركة الوطنية — كمبدأ — الأكاذيب التى الصقها بها الاستعمار وانصار الخديو والمفتريات التى شوه بها جهاد الشعب ، ويطلعهم على المبادىء الأصيلة لهذه الحركة وخطتها وكيف كانت تهدف الى الحرية الكاملة للشعب والحياة الديمقراطية ، ويقفهم على موطن الخطأ وأسباب الاخفاق ، ويبصرهم بدسائس السياسة الانجليزية التى كانت عاملا كبيرا فى هزيمة الوطنيين ...

واوصاهم أن يعتمدوا على قـوة الرأى العام وتربية الشعب التربية الوطنية والأخلاقية الكفيلة بتوطيد دعائم الحـركة الوطنية ومساندتها ، واوصاهم بألا يصطدموا بالخديو فمن هذا الاصطدام تنفـذ السياسة الانجليزية وتوقع الفرقة بين صفوف الأمة وخديوها ، كما فعلوا مع توفيق ، وأن لا يستسلموا فى كفاحهم مهما طال ، فان استسلام الزعماء يحطم الروح المعنـوية وروح المقـاومة الشعبية .

واوصاهم باتقان فن الخطابة ، فهى أمضى سلاح وسط شعب أكثره لا يجيد القراءة ، حتى يتمكنوا من الاتصال بقلوب الجماهير ، وينفذوا اليهـــا فتسير وراءهم فى الكفاح ، وصار يمرن الشباب على الخطـــابة ، ويخص بعنايته مصطفى كامل بعـد ان وجد فى قلبه وروحه وعزيمته الاستعداد الصالح لقيادة الجيل الجديد ويتبين فيه مواهبه الخطابية ، وظهر أثر النديم واضحا فى مصطفى كامل ، فى خطته فى محاربة الاســـتعمار وفى أسلوبه الخطـــابى لـكأنه قد اقتبس بعض أساليب النديم فى خطابته .

ودفع النديم الشباب الى الكتابة فى الصحف . فنشرت لهم الأهرام والمؤيد المقالات الأدبية والوطنية .

ولما أنشأ مصطفى كامل مجلة المدرسة وهو بعد طالب، وصدر العدد الأول منها يوم السبت ١٨ فبراير سنة ١٨٩٣ رحب بهـا السيد عبد الله النـديم ونوه بهـا فى مجلة الأستاذ فى عددها الصادر فى ١٨٩٣/٢/٢٨ .

كما نوه بمجهـوده فى تـكوين أول جمعية مصرية من الشبيبة المثقفـــة لترقية المسرح المصرى عرفت باسم

جمعية الفتوح الخيرية ، رئيسها مصطفى أفندى كامل ، وأعضاء مجلس ادارتها فريد ابراهيم وأمين فهمى، وحافظ بيومى . وقد قامت هذه الجمعية بتقديم باكورة انتاجها الفنى بتمثيل مسرحيـــة الملـكة بلقيس ، على مسرح البراديزو ، وقد شـاهد هذه المسرحية عدد كبـير من الوجهاء والطبقة المثقفة وأثنى عليها عبد الله النديم فى مجلة الأستاذ العدد ٢٩ الصادر فى ١٨٩٣/٣/٧ .

وقد ذكر الشاعر الكاتب ولى الدين يكن فى معرض حـديثه عن موقف اللورد كرومر مع السيد عبــد الله النديم ، وأوجه التشابه بين النديم ومصطفى كامل فى كتابه (المعلوم والمجهول) قال « هذا عبد الله النديم ، صاحب اللطائف والتنكيت والتبكيت من قبل ، وصاحب الأستاذ من بعد ، اختفى بعد ثورة العرابيين وكان حارثهم ابن حلزه ، أو عمرهم بن كلثوم ، رغا فتجمعوا ، وعقر فتفرقوا ، ثم آوته قرى الريف فبات كأبى زيد السروجى يحترف الحرف ، ويتنقل بين الأزياء والأشكال الى أن قال .. وظن اللورد كرومر أن عبد الله النديم اذا دام نشر أستاذه حدثت ثورة فى البلاد فأراد الاقتصاد فى المكاره ، والاجتناب للفتن ، ولو كنت أنا مقـام اللورد لتركته يقول حتى ينفذ ما عنده .. ويظهر من أمور كثيرة ان مقام الامارة وثق فى النديم ثقة لا يتخللها الريب ، فكان يحسبه قادرا على كل شىء ، ومن أجل ذلك قال أكثر الأمراء من الأسرة الحاكمة فى مصر ، أن مقام الامارة يقرب منه النديم عدو أسرته، وجنسه وبهـذه السياسة المضحكة آل الأمر الى الاعتماد على مصطفى كامل ، وقد كان ممن يرددون نغمـات النـــديم ، وانما ميز المقلد

عن المجتهد ، المامه باللغـــة الفرنسية واستطاعته بيان آرائه للغربيين ولم يفز النديم بمثل ذلك » .

أما صالون لطيف باشا سليم فقد كان مصطفى كامل من المترددين عليه بانتظام . وقد استفاد من هذا الصالون ما جعله فى صميم خططه فى الـكفاح الوطنى وهى انه لا سبيل لجلاء الانجليز عن البلاد بعد ما قضى على القوة العسكرية بهـــا الا بعمل سياسى ، اى بالدعـوة فى الخارج ، والاتصال بكبـــار رجال الســياسة الأوروبية وقراءة ما يكتبون فى قضايا الأمم ، ومعرفة نواياهم نحو بلادنا .

وقد غلبت على هذا الصالون النزعة الأدبية ، وسادته العقلية السياسية ففتح مصطفى كامل عينيه بشدة على هذه الحقائق الغربية التى تكشفت لعقله ، وكأنمـا هو واحد من أبطال قصص ألف ليلة وليلة ، الذى فتحت له كنوز تنبهر لها الأنفاس وتغشى لها العيون ، فساوره حلمه الذى بقى معه الى أن مات . . .

وهو (أن يحيى فى مصر الهرمة . . مصر الفتاة) .

أما منتدى على باشا مبارك ، وكلنا يعرف ان هذا الرجل لم يخدم مصر فى ميدان السياسة بل فى ميدان التعليم الذى نشره وأرسى قواعـده ، وكان مصطفى يؤم داره فيرى مشاهير الرجال فى عصره ، فيقرأ لهم الجـرائد بصوت مرتفع . فمرن على مخـاطبة النـاس دون هيبة ولا وجل ، وألف لقاء الجماهير ، وعرف أثر الصوت فى الســـامعين ، فصقل ذلك موهبة الخطيب فى نفسه ، فليس ثمة شىء يدرب الخطيب على الخطابة السليمة الا

ان يتبين أثره فى السامعين فان فقد هذه الموهبة ، فقد كل شيء .

ثم ذهب الى أوروبا ، وتعرف الى الكاتبة الفرنسية الشهيرة مدام جولييت آدم وكان صالونها السياسى الكبير فى باريس منتدى لكبار رجال السياسة فى أوروبا ، وكعبة للوطنيين من كل صقع يحجون اليهـــــا للمشورة والتوجيه .

وقد رات هـذه المراة العظيمة مواهب هـذا الشاب العبقـــرى ، فشجعته وفتحت له أبواب الدعاية فى الصحف على مصراعيها ، وعرفته بكبار رجال الصحافة والسياسة بفرنسا وبفضلها وجد معينـا لا ينضب من تقدير الأحرار وكسب تقدير عدد وفير من السياسيين وتأييدهم لقضيته والدعوة لجـــلاء الانجليز عن وادى النيل . وسوف نوضح صلاته بهذه الكاتبة الـكبيرة فى الفصول التالية بالتفصيل .

ثم حدث أن توثقت الصلة بينه وبين الشيخ على الليثى الذى تعرف به فى منزل على باشا مبارك فأعجب به وقام بتقديمه للخديو عباس فى مارس ١٨٩٢ ، ولما زار الأخير مدرسة الحقوق فى نوفمبر من ذلك العام وكان ناظرها المسيو نستو ووكيلها عمر بك لطفى ، وأثناء مروره بقاعات التدريس قدم له الطالب مصطفى كامل .

ألقى أمامه مرافعة باللغة الفرنسية ثم أخرى باللغـة العربية ، وعقب ذلك ألقى قصيدة رحب فيها بالأمير ، وكان من نتيجة هذه الزيارة وما تجلى فيها من حماسته أمامه أن نشأ عطف متبادل بينهما حتى أنه لما عزم على اتمام دراسته القـانونية بكلية تولوز بفرنسا سـافر

بتعضيده ولما عاد الى مصر فى ١٨٩٤/١٢/٦ . قابله صديقه عبد الرحيم بك أحمد رئيس ديوان المعية فى جلسة خاصة بمقهى بميدان باب الخلق وتفاهم معه (باعتباره مندوبا عن الخديو) للعمل مع الخديو على استقلال البلاد على أساس مركز البلاد القانونى بمواد معاهدة لندن سنة ١٨٤٨ .

ولابد أن نذكر هنا شيئا عن عبد الرحيم بك أحمد ، فقد كان مدرسا للدين للأميرين عباس حلمى ومحمد على توفيق حينما كانا يتعلمان فى أوروبا ، وأثناء وجوده معهما درس الحقوق ونال الليسانس ولما عاد من أوروبا عينه الخديو رئيسا لديوان المعية ، وكان أثيرا لديه بكل حب وتقدير الذلك بعثه ليكون وسيطا فى الاتفاق الذى أبرم بينه وبين مصطفى كامل وقد ظهرت بعض المذكرات التاريخية الخاصة تزعم بأن الخديو خصص مرتبا شهريا للطالب مصطفى كامل قدره عشرون جنيها له أثناء دراسته فى أوروبا بجانب المعونة التى كان يبعثها شقيقه الدكتور عبد الفتاح فتحى (شقيقه من ناحية والده) وقد توفى شقيقه هذا أثناء دراسته بأوروبا فكان أول عمل له بعد عودته أن ذهب الى قبره مترحما عليه ، باكيا فى حزن وأسى هذا الأخ الكريم الوفى .

وقد شجعه أن يجد شابا فى مثل سنه يعتلى عرش البلاد ، ويتفق معه فى الأغراض والأهداف فكان يجتمع به سرا بمسجد الشيخ التبرى بزمام سراى القبة ، وتعاهدا معا على السعى فى سبيل تحقيق الاستقلال ، وظلا أعواما طويلة حتى فرقت بينهما الدسائس والظروف وهو ما سيجىء ذكره ، حين التحدث عن العلاقات بينهما بتفصيل ..

ونعود مرة اخرى لنتابع نشاط مصطفى كامل أثناء دراسته بالحقوق فى مصر ، فقد أنشأ مجلة اسمها « المدرسة » صدر العدد الأول منها يوم السبت ١٨ فبراير سنة ١٨٩٣ جعل شعارها (حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك) وكان مصطفى كامل هو مدير المجلة ومحررها وكانت تشمل المقالات التهذيبية والمعلومات النافعة والنصائح العملية وشيئا من الحوادث والأخبار ، ودراسات أدبية وعلمية ، كان القصد منها تسلية الشباب وتثقيفهم وتعريفهم بواجبهم نحو الوطن .

وفى هذه الأثناء فكر فى تأليف نشيد وطنى وكان ذلك من بواكير شعره ، تثبت هنا طرفا منه لطرافته :

هلموا يا بنى الأوطان طرا
لنرجع مجدنا ونعز مصرا
هلموا ادركوا العلياء حتى
تنال بلادنا عزا وفخرا
هلموا واتركوا الشحناء منكم
وكونوا أوفياء فذاك أحرى
أليس يشيننا ترك المعالى
تباع بغير وادينا وتشرى
ونحن رجالها وبما لديها
من الاسعاد والخيرات أدرى
فعار أن نعيش بغير مجد
ونبصر فى السما شمسا وبدرا
وعار أن يكون لنا وجود
ويحظى غيرنا فوزا ونصرا

وهذا النشيد على بساطته يصور الانفعالات المبكرة

التى انفعل بها وجدان فتى مشبوب العـــاطفة ملتهب الحماس فى محبة بلاده .

وفى أزمة ابعـــــاد مصطفى فهمى عن الوزارة فى ١٨٩٣/١/١ قام طلبة مدرسة الحقوق بزعامة الطالب مصطفى كامل بمظاهرة هاجموا فيها ادارة جريدة المقطم في قفها العدائى من الموقف الذى وقفـه الخـديو عباس حلمى ، ثم اعتلى منصة الخطابة بين جموع الطلبة الذين احتشدوا للتعبير عن سخطهم على المحتل الـذى عارض رغبة الخديو فى ابعاد مصطفى فهمى صنيعة الاحتـلال المطيع دائما لتوجيهاته ، ووجه فى خطبته نداء الى المصريين ليتكتلوا ويستعدوا لكفاح مرير ضد الانجليز .

الحالة السياسية
فى سنة ١٨٩٠

١ ــ كان الانجليز يحتلون مصر منذ عام ١٨٨٢ وأقاموا فيها نظاما مبهما غير واضح المعالم ، اذ لم ينص فيه على ضم أو حماية . انهم أنهوا الكومترومينيوم الفرنسى الانجليزى فى السيادة ، وكفوا يد فرنسا عن مصر كعامل ادارى وسياسى ، ونوقشت مسألة الاحتلال عدة مرات دون جدوى .

٢ ــ فى شهر يناير سنة ١٨٨٧ كلف السير هنرى دروموند Henry Drumond تحديد الشروط التى تسمح بجلاء الانجليز مع تركيا .

٣ ــ أبرمت معاهدة الآستانة فى ١٨٨٧/٥/٢٢ بين ممثلى بريطانيا وتركيا وتعهدت انجلترا بسحب جيوشها من مصر خلال ثلاث سنوات الا اذا وقعت أخطار داخلية أو خارجية تحول دون الجلاء .

٤ ــ صرح مستر جلادستون Gladstone رئيس وزراء انجلترا فى ١٨٨٣/٨/٩ فى مجلس العموم قائلا : « ان حكومة صاحب الجلالة لم تفكر إطلاقا فى ضم مصر الى ممتلكاتها ، انها ان فعلت ذلك تكون قد نالت من شرف انجلترا » .

٥ — صرح اللورد سالسبورى رئيس وزراء انجلترا فى ١٨٨٦/١١/٣ الى مسيو وادنجتون Waddingtone
سفير فرنسا فى انجلترا قائلا : « انكم تخطئون عندما تظنون أننا نريد الاقامة فى مصر نهائيا ، اننا لا نبحث الا عن الخروج منها محتفظين بكرامتنا لقد صممنا على الجلاء » وهكذا تكررت الوعود الانجليزية مرات عديدة بل نستطيع أن نسرد سبعين تصريحا للانجليز من هذا النوع ورغم هذا لم يتم الجلاء .

ولقد أصاب البلاد من جراء ذلك الياس والقنوط ، وخيم عليها جو من الخنوع والاستسلام بقى مضروبا عليها حوالى عشر سنوات ، وقد نهض مصطفى كامل يدعو الى مقاومة الاحتلال . فى هذه الظروف بدت دعوته غريبة عن الأذهان ، بعيدة عن الادراك ، وتساءل معاصروه كيف تقوم حركة وطنية لتحرير البلاد من يد أقوى الدول نفوذا وأوسعها سلطانا ؟ ولكن وطنية مصطفى كامل كانت أقوى من الجيل الذى ظهر فيه ، وأقوى من العوامل المثبطة ، فأخذ يثابر على دعوته ويناضل عنها حتى استجابت الأمة لندائه ، فكانت نهضة ، وكان شعور وكان جهاد . فكانت رسالته الى مصر كصرخة الحياة المدوية فى سكون النوم العميق !!

العام الأول من الجهاد الوطنى :

١ — عقب ظهور نتيجة امتحان ليسانس الحقوق لكلية تولوز بفرنسا فى ١٨٩٤/١١/١٨ باعلان نجاحه بدأ فورا نشاطه السياسى بنشر أول مقال فرنسى له ، انتقد فيه الاحتلال البريطانى وبسط آماله فى تحرير بلاده فى جريدة

لايبش دى تولوز فى ١٨٩٤/١١/١٣ . ونشرت الجريدة مع المقال نبذة عن مصطفى كامل والتعريف بوطنيته وأهدافه .

٢ ــ سافر الى باريس لجمع المذكرات والمؤلفات والوثائق السياسية المتعلقة بالقضية المصرية من المكتبات الهامة بباريس ليسترشد بها فى كفاحه ، وعقد أواصر الصلة برجال الصحافة فى فرنسا وأوروبا .

٣ ــ عاد الى مصر فى ديسمبر سنة ١٨٩٤ ، وعلى ظهر الباخرة التى عاد عليها ، تعرف بالكولونيل بارنج شقيق اللورد كرومر « الحاكم الفعلى للبلاد فى ذلك الوقت » واشترك معه فى حديث سياسى حول وضع انجلترا فى مصر ، وقد نشر هذا الحديث فى أغلب الجرائد المصرية والأجنبية فى ١٨٩٥/١/٢٨ . وكان له دوى كبير فى جميع الأوساط السياسية فى مصر والخارج .

٤ ــ نظم حياته ووضع برنامجا خاصا بالعمل الوطنى ، بعد أن انتقل بحياته الخاصة الى ميدان ثان ، وأصبح ملكا للقضية المصرية ، ورغم أنه قيد أسمه فى سجل المحامين بمصر الا انه لم يترافع عن قضية واحدة بل قصر جهاده على الدفاع عن قضية مصر والسعى لتحريرها ، واندمجت بذلك حياته وتاريخه بتاريخ مصر .

٥ ــ فى ١٨٩٥/٣/٥ نشرت له جريدة الأهرام مقالة بعنوان « صواعق الاحتلال » استنكر فيها انشاء اللورد كرومر « محكمة مخصوصة » لمحاكمة المتهمين المصريين بالاعتداء على الجنود الانجليز متخطيا فيهما جميع الاجراءات القانونية السليمة .

٦ ــ فى ١٨٩٥/٣/٢١ توجه الى الاسكندرية بصحبة لفيف من أعضاء الحزب الوطنى لاستقبال النائب الفرنسى

المسيو فرانسوا دي لونكل ، الذى جاء الى مصر خصيصا لدراسة الأحوال السياسية تمهيدا للقيام بحملة دعائية ضد الاحتلال ، وكان مرافقـــا له فى جميع انتقالاته وحركاته ، وأولم له وليمة فى ١٨٩٥/٤/١٣ ؛ دعا فيها عددا كبيرا من الصحفيين المصريين والأجانب ، والأعيان من ذوى الرأى الحر ، احتفاء به ؛ وألقى كلمة عن اغراض حضوره .

٧ ـ قام بأول رحلة سياسية له الى فرنسا فى ١/٥/١٨٩٥ ، وأقام فى احد فنادق باريس بشارع بلزاك واخذ فى اعداد أول حملة دعائية له لاثارة الرأى العام فى فرنسا وأوروبا لتأييد القضية المصرية وذلك باعداد نداء الى فرنسا مشفوعا بلوحة مصورة لتقديمه للمسيو هنرى بريسون رئيس مجلس نواب فرنسا ، للاستنجاد بها ضد الاحتلال .

٨ ـ أرسل الى شقيقه على فهمى كامل ـ الذى كان من معاونيه فى مصر ـ يوضح فيه ، ما أنجزه من المراحل فى الخطـــة الموضوعية ، للاتصال بالمراكز السياسية والثقافية فى فرنسا ، وما يعقده من آمال فى اتاحة الفرص المناسبة له للدعاية لقضية وطنه .

٩ ـ فى ١٨٩٥/٦/٥ ، ذهب مع وفـــد من الشباب المصرى بفرنسا لمقابلة المسيو هنرى بريسون وقـــدم له خطابا يطلب فيه معونة فرنسا مع اللوحة الرمزية المصورة التى تحمل هذه العبارة « نداء الى فرنســـــا محررة الشعوب لانقاذ الشعب المصرى » .

ونشرت جـريدة لــكلير الفرنسية مضمون هــذا الخطاب فى عددها الصـــادر فى ١٨٩٥/٦/٦ وطبع

مصطفى كامل آلاف النسخ من هذه اللوحة وأرسلها الى كبريات الصحف في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، وقد قابلت الصحف الانجليزية هذا العمل بحملة شديدة عليه ، واتهمته بأنه شاب يثير القلاقل والاضطرابات وأنه من اصل تركى لا مصرى .

وكان لهذا العمل دوى هائل فى أوروبا وفى مصر ، فقد لفت أنظار العالم الى المسألة المصرية ، وكان هـذا النـــداء أول صوت للشعب المصرى فى اوروبا عقب الاحتلال ، وقيام مصطفى كامل به وهو بعد فى الحـادية والعشرين من عمره لأكبر مظهر من مظاهر عبقريته .

١٠ - نشرت له جريدة « الجورنال » وهى من أوسع الصحف الفرنسية انتشارا فى عدد ٢ يوليو سنة ١٨٩٥ حديثا سياسيا عن مصر كان له تأثير كبير فى تبصير الرأى العام بمساوىء الاحتلال البريطانى .

١١ - ألقى أول خطبة سياسية له فى فرنسا بل فى أوروبا فى ١٨٩٥/٧/٤ بمدرج كليـة آداب جامعة تولوز على رهط كبير من أساتذة كليـة الحقوق وكبار رجال الصحافة والرأى فيهـا ، شرح فيهـــا أبعاد القضية المصرية ، وأستنجد بأوروبا وفرنسا لمعـاونة مصر فى استرداد استقلالها وهى أول خطبة سياسية يلقيهـــا مواطن مصرى باللغة الفرنسية فى الخارج ، ولم يسبقه الى ذلك أحد قط وقد علقت عليها الصحف النمساوية والألمانية .

١٢ - اقام مأدبة لـكبار رجال السياسة والصحافة بباريس لشكرهم على ما أبدوا من أهتمام بقضية بلاده فى ١٨٩٥/٧/٧ ، وعند انتهاء المـأدبة وقف المسيو باسريو

رئيس تحرير جريده لاديبش دى ولوز والقى كلمة تأييد لقضية مصر ورد عليه مصطفى كامل بكلمة عصماء يطلب فيها من فرنسا مؤازرته .

١٣ ـ سافر الى النمسا ونزل بفيينا فى ١٨٩٥/٧/٢٠ للاتصال برجال السياسة بها ونوهت بشخصيته وأهدافه من رحلته جريدة « اكسترا بلاط » اكبر جريدة سياسية فى فيينا فى عددها الصادر فى ١٨٩٥/٧/٢٨ .

١٤ ـ عاد الى باريس فى ١٨٩٥/٨/٨ ونشر رسالة بالفرنسية عن (أخطار الاحتلال البريطانى) مبينا فيها أهمية مركز مصر بالنسبة للعالم ، وأن وجود انجلترا فيها سيجعل نفوذها يمتد من الاسكندرية الى رأس الرجاء الصالح ، محتكرة بذلك التجارة الافريقية والآسيوية فضلا عن امتلاكها جبل طارق وعدن ومالطة وقبرص مما يجعل البحر الأحمر بحيرة انجليزية وان احتلال مصر خطر على العالم بأسره ، وان السياسيين الذين يساعدون على اجلاء الجنود الانجليزية عن مصر لا يؤدون الواجب الذى فرضته عليهم العدالة والكرامة فحسب بل انهم يعملون أيضا للسلام العام واتحاد **المسيحية مع الاسلام** . والعبارة الأخيرة تصدر لأول مرة عن زعيم مسلم فى الشرق العربى ، وهى بلا شك تدعو الى فكرة من أعظم الأفكار البناءة التى توثق أواصر العلاقات الانسانية فى المجتمع البشرى .

١٥ ـ فى هذا الوقت ألغى وزير المعارف المصرى البعثة المصرية الى فرنسا فطلبت منه جريدة لكلير الفرنسية فى ١٨٩٥/٩/١٠ رأيه بهذا الخصوص ، فنشر مقالة مطولة عن تاريخ العلاقات الثقافية بين مصر وفرنسا منذ

انشاء هذه البعثة فى عهـد محمد على لتعليم الشبيبة المصرية .

١٦ — وفى ١٨٩٥/٩/١٢ حدث أهم حادث فى مجـال الدعاية لقضية بلاده وهو اتصـاله بالكاتبة الفرنسية العظيمة مدام جوليت آدم ، بعدما أطلع على مجلتهـا الكبرى لانوفيل ريفو ووقف على مثلها العليا التى تحرك قلمها ، فقد أرسل لها من تولوز خطابا مشفوعا بنسخة من رسالته (أخطار الاحتلال البريطانى على مصر) . وسوف نرى انه لم يكن مخطئا فى تقديراته وانه لم يجد فى مدام جوليت آدم الناصحة والمرشدة الأمينة فحسب بل وجد فيها الأم الروحية أيضا .

١٧ — وفى ١٨٨٩/١٠/١٥ نشرت له مجلة لانوفيل ريفو ، أول مقالاته الخطـيرة التى هزت الرأى العـام السياسى فى أوروبا ،وأثارت حفيظة انجلترا وجن جنونها بعنوان « انجلترا والسـلام » وقامت تندد به الجريدة الانجليزية ذى سـتاندار اللندنية وما لبثت الجـولوا الفرنسية ان طلبت منه حديثا تعليقا على هذه الحملات وتم الحديث فى ١٨٩٥/١٠/١٥ .

١٨ — فى نوفمبر سنة ١٨٩٥ نشرت الأهرام له ثلاث مقالات وطنية ، الأولى عن الوزارة الفرنسية الجـديدة وفيه تحليل دقيق للسياسة الفرنسية والثانية خطـاب مفتوح الى اللورد سالسبورى رئيس الوزراء البريطانى فى ١٨٩٥/١١/١٣ وذلك ردا على خطابه فى (الجيلد هول) الذى ندد فيه بمظالم تركيا ودافع عن الأرمن ، أتهم فيه مصطفى كامل انجلترا بمحاولتها خلع السلطان .

١٩ — ألقى فى ١٨٩٥/١٢/١١ خطـابا فى الجمعية

الجغرافية بباريس ـ حضره رهط من كبار رجال الدولة
وعلى هذا المنوال استمر مصطفى فى دعايته السياسية
لقضية بلاده ليس فى فرنســـــا فحسب بل فى جميع
العواصم الأوروبية : الآستانة ـ فيينا ـ بودابست ـ
روما ـ لنـــدن ـ برلين مستخدما ومبتكرا عـديدا من
الأساليب العلمية للدعاية الناجحة .

فن الدعاية والاعلام عند مصطفى كامل :

١ ـ استغلال سـياحاته فى أوروبا خاصة بفرنسا ،
بالاتصال المباشر بالمجتمعات المتقدمة فى كل دولة ، وعقد
الصلات مع رجال السياسة والصحافة وذوى الرأى الحر
من نواب وشيوخ ، ودعوتهم الى ندوات حينا والى ولائم
حينا آخر ، وفيها يقوم بشرح أبعـاد القضية المصرية ،
يخطب بحكمة ، وتتخذ خطبه شكل المحاضرات ، غنية
بالبراهين ، مدعمـة بالاحصائيات للتدليل على رأيه ،
محاولا بذلك كسبهم لصفه وتجنيدهم للعمل لمصلحة بلاده .

٢ ـ محـــاولة دفع الرأى العام البريطـانى لمؤازرته
بالاعتراف بعدم مشروعية الاحتلال البريطانى ، واتصاله
بالجـــاليات الأجنبية المقيمة بمصر وتوعيتها بالأحوال
السياسية .

٣ ـ دعوة بعض كبار الشخصيات الأوروبية الهـــامة
لزيارة مصر .

٤ ـ الأدلاء بالأحاديث الصحفية لمراسـلى الجـرائد
ووكالات الأنباء فى كل بلد أوروبى يزوره ودفع الصحفيين
لنشر المقالات المؤيدة لبلاده .

٥ ـ تأليف الرسائل والكتب السياسية باللغة الفرنسية عن القضية المصرية وتوزيعها على كل الهيئات السياسية والثقافية فى دول العالم المتمدن .

٦ ـ تنظيم وتعبئة الشباب المصرى فى مصر والخارج وتجنيدهم للنضال ضد الاحتلال وقد تبلور هذا الدور بشكل حاسم فى عهد خليفته المرحوم محمد بك فريد .

٧ ـ ويمكن حصر وسائله فى الدعوة والاعلام فى الداخل والخارج فيما يلى :

ا ـ الصحافة . ب ـ الخطابة . جـ ـ الرسائل .

د . الكتب . هـ ـ الاتصال الشخصى .

ويحتاج كل واحد من هذه الوسائل لكتاب مستقل لشرحه وتوضيحه .

وقد نجح مصطفى كامل فى دعايته أبلغ نجاح ، فى ايقاظ الشعور الوطنى وبعث الحركة الوطنية فى مصر واثارة انتباه الرأى العام الأوروبى وكسب تأييده للقضية المصرية .

واستطاع وهو الأعزل من كل سلاح ، الاضطلاع لوحده بتلك الأعباء التى تخصص لها ـ فى أيامنا ـ وزارات ذات أجهزة بشرية وفنية ضخمة .

قصة حب

لقد كانت حياة مصطفى كامل قصة حب كاملة تمثل على مسرح التاريخ ، تمثيلا واقعيا بعيدا عن الخيال ؛ فكان لفظ الحب هو أول ما بدأ به شعاره الأول فى الجهاد الوطنى من أجل بلاده وقد نقش على غلاف مجلة المدرسة التى أصدرها وهو طالب بمدرسة الحقوق فى ١٨ فبراير سنة ١٨٩٤ (حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك) .

ولم يظهر فى تاريخ الوطن ولا فى كثير من الأوطان ان استهدف انسان من مبدأ حياته ، قضية بلاده ... وأن يمنح جهوده ، وأفكاره وآماله لوطنه دفعة واحدة ، وبتصميم قوي منذ ان كان طالبا بالمدارس الثانوية كما فعل مصطفى كامل ، وكثير من الزعماء الوطنيين بدأوا حياتهم فى أعمال عادية بعيدة جدا عن النضال الوطنى ومن سياق الأحداث وتفاعل الظروف اتجهوا للجهاد الوطنى بعد ذلك الا مصطفى كامل !! ، الذى عبر عن رغبته أمام على باشا مبارك وزير المعارف اثناء زيارته للمدرسة الخديوية ، وسلك بعد ذلك السبيل الوحيد الذى يلتزمه كل مجاهد وطنى فى سبيل تخليص بلاده، وهو الصحافة السياسية والدعوة المثمرة بالقلم واللسان

الى جلاء الاحتلال ، ونشر الوعى القومى فى طول البلاد وعرضها . ولم يسمح لنفسه وهو النابغ أن يمارس أى عمل حكومى يطامن رأسه ويخضعه لحكومة تحركها أصابع الاحتلال الانجليزى ؟؟

وبقى « الحب » الى آخر حياته العنصر الأقوى فى كل ما يحركه ويجدد همته ويبعث خواطره ويلهمه ، وهذا طابع العظماء الذين لا يلتصقون بالمذاهب الضيقة التى يقتصر نفعها على جماعة دون جماعة ، فالحب هو أقوى ما يسمو بالقادة والمفكرين عن الدنايا التى يتورط فيها الناس من حقد وحسد وخوف .

ولقد أحب مصطفى كامل أمه حبا شديدا ، فهيأ ذلك الحب قلبه ليكون وعاء للعواطف الخيرة من تضحية وانكار للذات ، وميل لخدمة النـــــاس وقدرة على مشاركتهم آلامهم وأحزانهم ومشاطرتهم أفراحهم ومباهجهم . لأن حب الأم حب خالص برىء من الأنانية والاثرة ولذلك بقى مصطفى كامل فردا فى أسرته ، بارا بأعضائها مخلصا

ولقد روى بعض الذين عاصروه وكانوا معه فى آخر أيام حياته ، أنه وهو على فراش الموت فكر فى شقيقته التى لم تتزوج فى حياته وود لو تطيل الأقــدار عمره ليفرح بزواجها ، وأسف لعدم تحقيقه ، وليس أدل من هذا على روح الوفاء المتمكن فى قلبه نحــو أفراد أسرته

وشعار مصطفى كامل فى مجلة المدرسة غنى بالمعـانى التى لا يفرغ الانسان منها ان أطال فيها التأمل ، فهـو يقول لقراء مجلته الصغار ، فى جملة واحدة ، أحبوا مدرستكم وأهلكم ووطنكم . ويقول لهم أيضا ان حب المدرسة لا يختلف عن حب الأسرة والوالدين ، والمدرسة

تخدمنا وتحنو علينا وتنفعنا كما ينفع الأب والأم وهـو يقول أيضا فى هذا الشعار ، ان الذى يحب مدرسته يحب العلم والفضيلة والشجاعة وهذا هو نفس ما يدعونا الى حب الوطن ، وفى هذه المعـــانى وما يتفرع منها وما يتصل بها ، ما يدعو كل مواطن عربى أن يدهش كلما تذكر أن كاتب هذه العبارة هو شاب بل صبى لم تزد سنه على التاسعة عشر ربيعا ؟

لقد ظهر مصطفى بعـد ثورة قومية منيت بالهزيمة ، وبعد احتلال سعى جهده فى أن يحلل أمل الأمة ويضعفه ويثنى عزم المقاومين ، فكان الذين يؤثرون المقـــاومة يتساءلون كل صباح وكل مساء « كيف نقـاوم وبمـاذا نقاوم ؟ » فأتاح تساؤلهم هذا الفرصة لدعاة الاستسلام والاعتراف بالأمر الواقع والرضاء به ، حتى جرؤ بعض المستوزرين فى ذلك العهد (١)، أن يحدث صحيفة أجنبية كبيرة فيقول :

« ان التغيير الكبير الذى أحدثته بريطانيا كان سريعا واسع المدى لدرجة أنى فى بعض الأحيان أغمض عينى واتساءل هل أنا فى يقظة أم فى منام .. فيحق لنا أن نشكر بريطانيا ، أننا مدينون لها بثروتنا وسعادتنا » .

وكان الى جانب هؤلاء طائفة أخرى من المصريين عرفوا بالعقليين ، الذين نصحوا بالتريث والتعـــلم على يدى بريطانيا ، حتى نقوى على مجالدتها ومصارعتهـا ، وكان هؤلاء وأولئك خليقين أن يبثوا سمومهم وأن يجدوا من يصدقهم ويقتنع بمزاعمهم لولا أن عاجلهم مصطفى كامل بطرقاته السريعة القاصمة من بيانه السهل المنحدر بشدة

(١) هو مصطفى باشا فهمى رئيس وزراء سابق

كالسيل ، فقد أدرك بسليقته السياسية السليمة وبفطرة القائد الموهوب ان سبيله الى مقاومة الخطر الماحق ، اثارة الحب القوى فى قلوب المواطنين للبلاد ، واثارة البغض الشديد للاحتـــــلال ، والحب والبغض أقوى عواطف الانسان وأبعثها لهمته وأشدها الهاما وايحاء .

فأيقظ حب مصر بقطع من البيان الشعبى ، تكاد تكون من أروع قطع الشعر المنثور ، وتغنى بحب مصر ، وافتن فى وصف جلال ماضيها واحتفل بذكريات تاريخها وجرى على لسانه ما أصبح ثروة لكل كاتب وشاعر وطنى فى البلاد . فأصبحنا نردد قوله « لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا » ولقن المدرسون تلاميذهم فى المدارس فقرات من خطبة الوداع المشهورة فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ » وهى أعظم خطبة سياسية ألقـــاها زعيم فى النصف الأول من هذا القرن » لا فى مصر فحسب بل فى الشرق العربى بأسره .

« الا أيها اللائمون انظروها وتأملوها وطوفوها واقرءوا صحف ماضيها ، واســــألوا الزائرين لها من أطراف الأرض ، هل خلق الله وطنا أعلى مقاما ، وأسمى شأنا وأجمل طبيعة وأخلد أثرا وأغنى تربة ، وأصفى سماء وأعذب ماء وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز ، اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد ، ان مصر جنة الدنيا وأن شعبا يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب اذا أعزها ، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه ، اذا تسامح فى حقها وسلم أزمتها للأجنبى » .

وبقدر ما عمل مصطفى كامل على اثارة هذا الحب فى القلوب ، عمل أيضا على اثارة كراهيته للاحتلال واظهار

سقطاته وعيوبه وجناياته على مستقبل البلاد واقتصادها، واقناع المصريين والأجانب ببطلانه وبأنه اعتداء على مصر وعلى السلام العالمى ، ووقف فى وجه كل محاولة لتصحيح أساس هذا الاحتلال أو ازالة عدم شرعيته ...

ولما عاد مصطفى كامل الى مصر بعد نواله ليسانس الحقوق من فرنسا فى ديسمبر ١٨٩٤ اعتزم أن يهب حياته كلها للجهاد فى سبيل مصر ، ولئن قيد اسمه فى جدول المحامين ، فانه لم يترافع فى قضية لفرد قط .

ثم سعى للتعرف على مدام جولييت آدم اذ ارسل اليهـــا من تولوز فى ١٢ سبتمبر ١٨٩٥ هذا الخطاب التاريخى ، الذى يصور فيه حبه لوطنـــــه واستعداده للفناء فى سبيله . وقد جاء فيه : « انى لا أزال صغيرا ولكن لى آمالا كبارا ... » .

هم يقولون ان وطنى لا وجود له ، وأنا أقول ياسيدتى انه موجود وأشعر بوجوده بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب سواه ، وســـأجود فى سبيله بجميع قواى وأفديه بشبابى ، وأجعل حياتى وقفـــا عليه ، انى أبلغ من العمر احدى وعشرين سنة ، وقد نلت اجازة الحقوق من تولوز قبل سنة ، وأريد أن أكتب وأخطب وانشر الحمية والاخلاص اللذين أشعر بهما فى سبيل رفعة الوطن العزيز ، قـــد قيل لى أكثر من مرة أنى أحاول محالا ، وحقيقة تصبو نفسى الى هذا المحال ، فأعينينى يا سيدتى ، فانك من الوطنية بمكان يفردك بمزية تقدير قولى ، وتقوية عزمى وشد أزرى وتقبلى التحية والاحترام .

ويبدو من هذا الخطاب العزيمة القوية وجذوات الحب العارم المتهب فى جوارحه نحو بلاده ، وكيف أن روح الهزيمة قد خيمت على قلوب معاصريه فاستكانوا للظالم المحتل ويئسوا من كل محـــاولة التخلص من براثن الاستعمار ، أما هو ففتح طريقا جديدا ، طريقا مجيدا للجهاد له ولمن بعده من أجيال المجاهدين ، بل فتح باب الأمل والرجاء فى امكان تخليص مصر من ظلام دامس ارخى سدوله على مصيرها .

وفى خطاباته الخـاصة الى شقيقه نلمس آثار وهج الحب ، الذى يدفعه الى العمل والتفـانى . كتب الى شـقيقه على فهمى كامل فى ٣٠ من مايو سنة ١٨٩٥ قال :

« الآن أقضى ليلى ونهارى فى مخالطة كبار السياسيين، لأنتفع منهم بخـدمة مصر المحبوبة ، والحمـد لله قد تشرفت بمعرفة الكثيرين . رأيت من الجميع استعدادا لمعاونتنا وتحريك المسألة المصرية وطرحها للمناقشة من جديد .

وانى أجد فى نفسى قوة فى هذه الأيام ما شهدت مثلها مدة حياتى ، كأن الله يريد أن يكون العامل لبلاده قويا ، حتى يقاوم هذه الحركة الهائلة ، ولكننى أشعر من جهة أخرى بأن بلادنا فى حاجة لرءوس وأقلام مصرية كثيرة ، حتى يقرب البعيد ، بما تحدثه فى العـالم من الحركة » .

وفى رسالة أخرى ارسلها الى شقيقه قال :

« فاعذرنى أيها الأخ العزيز ، فانى أتعب نفسى ليـلا

ونهارا ، وان كان هذا التعب لا يذكر فى جانب ما علينا لوطننا المقدس من الواجبات ، فلو رايتنى الآن لرايت مصريا يحرق قلبه لرؤية أمته سعيدة . مالكة زمام امرها ، ووطنه مستقلا رفيع المنزلة بين الاوطان . ترانى فى حركة مستمرة ، تارة أحادث وتارة كاتب ومرة ازور وحينا أهاجم ، وحينا أدافع ، ولى كبير الامل ان يفتح باب المسألة المصرية للمناقشة عاجلا أو آجلا وكل آت قريب ، اما صحتى فلم يطرأ عليها تغيير . وهب ان طرا شيء ، فان من يبذل الروح وهو الجوهر ، لا يبالى بالجسم وهو العرض » .

ولكم كتب الى امه الروحية « مدام جولييت آدم » من رسائل تسرى فيها تلك النغمة . وتفيض أيضا اسى وعتابا على أهل وطنه الذين — مع التأييد والحب — لا يشتركون معه عمليا فى الجهاد ، ولا يبعثون اليه نفرا من المواطنين المتشبعين بحب الوطن مثله ، لكى يعملوا معه ويكتبون ويخطبون ، ويشدون أزره في معركة النضال فقد كتب لها فى ١٩٠٤/١٢/١٦ يقول :

« أنى أروى مشهدا من أفظع المشاهد ، ذلك هو سقوط وطنى ، ولو كنت لا أستطيع تنفس الصعداء كل لحظة لعبرت من زمن بعيد . انه لمن أشق الأعمال على الانسان أن يجاهد ضد الزمن والحوادث والناس ، وليس هناك شيء يؤلمنى أكثر من الانحطاط الأدبى الذى استولى على أولئك الذين كان يجب عليهم أن يكونوا أعظم الناس كرما وشهامة . لا تتخذى من هذا دليلا على الفتور ، ولكنها زفرة متألم . فانى ما زلت ولن ازال ابذر البذر الصالح ، وأمثل الأمل الحى بالرغم من كل العوائق حتى لا نترك ماضى مصر ومستقبلها فى يد النسيان .

وفى رسالته اليها فى ١٩٠٥/٨/٢٩ قال (١) :

« انى كلما فكرت فى أنى أن زلت عن هذا الوجود فلن يسمع احد صوت وطنى ، كلما ارتقى شعورى ، وقويت معنويتى ، واعتنيت بصحتى التى تتحسن شيئا فشيا .. ليس امامى الا خمس سنوات أو ست سنوات أكافح فيها أشد الكفاح ، وبعدئذ أستطيع العيش سعيد البال فالسعادة لا تنال دفعة واحدة » .

ولكن القدر لم يمهله هـذه السنوات التى تمنى أن يحياها ، فالسنوات الخمس أصبحت ثلاثا ، والسعادة التى كان يطمع فيها بعد هذا الكفاح المضنى نالهـا ولكن ليس فى هذه الدنيا ، بل كانت فى الدار الأخرى ، بعد أن التف حول جثمانه شعب بأسره ... وفتح له باب الخلود على مصراعيه .

وتوالت الدلائل على احساس مصطفى كامل بدنو أجله فقال لمدام جولييت آدم فى ٤ أكتـوبر سنة ١٩٠٧ : (وستكون هذه السنة أهم سنة حياتى) ولقد صدق حدسه ، ففى هذه السنة تأسس الحزب الوطنى وصدرت جريدتان باللغتين الفرنسية والانجـليزية واطلق سراح سجناء دنشواى ثم لزم فراشه ، حتى حمل على الأكتاف الى القبر .

وفى خطبة الوداع التى ألقاها فى أكتوبر سنة ١٩٠٧ لخص هذا الحب العظيم فى عبارة خالدة أصبحت مثلا يروى على مر الأجيال حين قال :

« بلادى بلادى ، لك حبى وفـؤادى ، لك حيـاتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى لك لبى

---

(١) مصطفى كامل لفتحي رضوان ص ١٢٩ .

وجنانى ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة الا بك يا مصر » .

وقد اتخذ الفنان المصرى الشهير سيد درويش ، من هذه العبارات ، مطلعا لنشيد وطنى الفه ولحنه ، واصبح هذا النشيد من روائعه الفنية الخالدة ، ترنم به شباب مصر منذ قيـــام ثورة ١٩١٩ (وهم يواجهون رصاص الانجليز) حتى الآن .

وحين انتقلت روحه الى الرفيق الأعلى ، بكاه أصدقاؤه وخصومه على حد سواء ، وأقروا جميعا فى مصر وخارج مصر بأنه مات بأسباب حبه لوطنه ، وتعذب بنار هـذا الحب حتى آخر لحظة من حياته ، وفيما يلى ما نشرته الصحف الأجنبية فى مصر عقب وفاته .

فقالت جـــريدة « البروجــــريه » الموالية للاحتلال « ان نبأ وفاة مصطفى كامل باشا ترك فينا اسى بالغا ، واذا كنا حاربناه محاربة مريرة ، فاننا نكن لخصمنا البطل شيئا أكثر من العطف ، انه مات من شدة حبه للوطن ، واننا نبكى فيه نشاطه وشهامته ، بل نبكى فيه شخصيته الجديرة ببكاء الناس عليه .

وقالت الفارد الكسندرى ، الموالية للاحتلال :

« كان نشطا وذكيـا ومثقفا وخطيبا لامعـا ، وكاتبا عظيما ، كان يحمل بين جنبات فـــؤاده عقيـدة ترفع الجبال ، العتيدة فى مستقبل بلاده وحبه المقدس لها ، مصر التى كان يريدها حـرة مسـتقلة ، انه لم يتمتع بتحقيق حلمه ، بيد أن الأعمال التى قام بهـا مجيدة ، لقد عرف العامة ما هى عبادة الوطن ، وبلور فيهم هذا المثال العالى النبيل فكرة استقلال الوطن ، وعرف كيف

يجمع حوله مختلف العناصر ليكون حزبا متآزرامتحداقويا فاختاره هذا الحزب رئيسا له . كانت نواياه نبيلة دائما وهدفه ساميا لأنه كان يعشق مصر أمه المجيدة ، ان المصريين يبكونه مر البكاء وانا نضم دموعنا الى دموعهم ».

وقالت جريدة لبيراميد المؤيدة له :

« أن موته بالنسبة لمصر خسارة لا تعوض ، لم ير الشرق الحديث بأجمعه رجلا أشد قوة روحية منه ، أو أكثر مثابرة منه ، كان منكرا لذاته الى حد التضحية ، وكانت حياته السياسية كثيرة الاضطراب ، ولكنها كانت جميلة طوال الخمسة عشر عاما كحياة الكهنوت ، لقد أحب مصر حبا جما » .

ومن أقوال الصحف الأجنبية خارج البلاد ، ما نشر فى جريدة لتندار الفرنسية على لسان أميل فلورانس فى عددها الصادر فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٠٨ عن وفاة مصطفى كامل :

« تعرفت خلال حياتى السياسية الطويلة بوطنيين متحمسين ، تتألم أوطانهم تحت يد الاحتلال الأجنبى ، ولقد لمست آلامهم وآمالهم وقلقهم وكربهم ، ولكن لم أجد فيهم مثل مصطفى كامل فى شدة حبه لوطنه وللحرية والتقدم . أن معرفة مثل هؤلاء الرجال تجعلنا نرتبط بهم ، والفراغ الذى يتركونه فى قلوبنا لا يمكن ملؤه » .

وتكلم الكاتب الفرنسى رينيه بوو مراسل جريدة الطان حديثا طويلا عن مدرسة مصطفى كامل وعن زيارته لها بصحبة مصطفى كامل ثم أضاف بعد أن تصدى لبعض ذكرياته المؤثرة :

« كثيرا ما ادعى أعداء وخصوم مصطفى كامل بأن كل

الحركات والدعايات التى قام بها لم تكن الا مظاهر مختلفة لحملة أرادها الباب العالى ضد انجلترا ولكن لا يعتقد هذه النهضة الا الذين لم يستمعوا الى خطب مصطفى كامل عن مصر . كان يحب بلده حبا جما وبذل نفسه من اجله. كان يشرف بنفسه على صحفه الثلاث وبكتب المقـــالات ويصحح البروفات ويصـــدر الأوامر ويستقبل وفـــود الزوار ، كان يختلس لحظات الراحة التى تركها له عمله المضنى ، ليحضر خطبه الوطنية التى سيلقيها فى أهم المدن المصرية ، ولقد قال منذ اربعة شهور عندما كان فى باريس :

« أخشى قصر عمرى ، فلا ارى تحرير بلادى ولـــكن لا ضير فقد ربحت الجـــولة ولن يترك المصريين الـــكفاح اذا مت » .

كانت هذه هى آخر فكرة لذلك الرجل ذى القلب الكبير الذى أعجب به ، وأحبـــه كل الذين عـــرفوه ، والذى لا تستطيع مصر الا الاحتفاء بذكراه والاعتراف بجميله» .

عبقرية الزعامة

يمر الزمن ، وتنسى الحوادث ، ولا ينسى مصطفى كامل وذكراه العظيمة التاريخية الخالدة ، فذكرى زعيم مصر مصطفى كامل هى من طبيعة الزعامة التى كان مصطفى كامل رسولها وصاحب دعوتها ..

لقد بزغت شمسه فى عصر ادلهمت فيه الحوادث واعترت الأمة المصرية فترة ركود ، ركدت بأسبابها الهمم ، ووجمت النفوس ، وسكتت الألسنة ، وسكنت الحركة ..

ولكن لما كان للزعيم فى الأمة رسالة ، تضع حدا فاصلا بين السنة واليقظة ، هب مصطفى كامل وحده يدعو الأمة للمطالبة بحقوقها التى أخنت عليها حوادث سنة ١٨٨٢ ..

كان مصطفى كامل حجة الأمة المصرية البالغة على باطل الذين رأوا أنها غير جديرة بنعمة الاستقلال ..

نطق بحق مصر طول حياته وجاهد أكبر دولة فى العالم (فى وقته) ولم يعبأ بالعقبات فى طريقه — ولكنه ذللها وضرب المثل الأعلى للشباب فى كل جيل بأن من واجبهم وحدهم العمل فى صفوف المجاهدين ، وقد عدمت مصر النصير من الشيوخ ..

كان مصطفى كامل كتاب الجهاد الوطني — وهو الذي وضع رسالة الجهاد . ورسالة الزعامة لله والوطن .. لم يرج من وراء زعامته وقيادته الأمة المصرية فى ميدان الجهاد الوطنى مناصب او رتبا أو جاها ...

ولم يؤثر عن مصطفى كامل فى جهاده مهاجمة خصوم البلاد لا من المحليين او الأجانب — فكانت زعامته رفيعة . وآيته سامية ، وضرب بذلك اروع مثل اخلاقى — اذ يقول : « انى اترفع عن أن ادافع عن بلادى بالشتم والسباب » .. وقد وضع للأمة المبدأ الوطنى الأعلى الذى يجب أن تترسم خطاه ، وتنهج منهاجه فى جهادها ضد الاستعمار والاحتلال بقوله :

« ليس للبلاد التى تحتلها الجنود الأجنبية الا سياسة واحدة هى سياسة الاستقلال ، اى الجلاء . وأن كل قول أو عمل يؤدى الى اضعاف الروح الوطنية ، والى هدم كل أو جزء من ثقة الأمة بنفسها ومستقبلها هو اكبر اذى يصيب البلاد » ..

ووضع للزعماء والقـــادة فى مصر قاعدة تميط من الطريق أذى الشك فى اخلاصهم وأذى الاتهام ، مبينا لهم أن المناصب فى ظلال الحكم الأجنبى لا تليق بزعيم أن يتسابق اليها — اذ قال :

« ان الحكم المرتكز على قوة الأجنبى ليس معناه الا خيانة الشرف الوطنى » .. ووضع لأبناء الشعب قاعدة من قواعد الوطنية الحقة ، وشرع لها دستورا تسير عليه فى عرفان التمسك بحريتها واستقلالها اذ يقول :

« ان الاحتلال الأجنبى عار على الوطن وبنيه ، وازالة العار من أقدس الواجبات » ..

حقا لقد كان مصطفى كامل ذخيرة الوطن .. والزمن..
فى يد التاريخ ، وكتاب الجهاد الوطنى فى سير الزعماء والقادة ..

وقد أدخره الله لزمنه الذى وجد فيه ، كما يدخر الملهمون للأزمان التى يقضى أن يوجدوا فيها ، فبزغ بدرا ساطعا فى عصر قلت فيه النجوم ، وعلا نجمه حتى أصبح معجزة لمصر - تفخر به الأمم والشعوب ..

كان لسان مصر الناطق وحركتها الدائبة ، ولم تكن زعامته سياسية فحسب - بل كان زعيم - دين وأخلاق - ومجتمع ، بل زعيم اقتصاد وتشريع وتعليم ..

كان مصريا يقدس ما هو مصرى ،ويفخر بانتسابه الى الأمة المصرية ذات التاريخ العظيم - اذ يقول :

« لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا » ..

كان مؤمنا ثابت الايمان بعقيدته ووطنيته وعروبته ، لم تفتنه عن جهاده المغريات ، ولا التلويح بالمناصب تارة وبالمال تارة أخرى ، ولكنه هزأ بكل ما هو بعيد عن الدفاع عن قضية الوطن .

وفى ميدان الخطابة كان مصطفى كامل الفائز المجلى ، والخطيب القادر على تحريك الجماهير ، وفى ميدان الكتابة السياسية كان الكاتب الألمعى الذى لا يضارعه أحد ..

وفى خلال العقد الأول من القرن العشرين ، أيام كانت الحياة تنحنى أمام السيد المطاع اللورد كرومر ، كان مصطفى كامل اول من جرؤ على مجابهة المغتصب ، رغم صغر سنه وحداثة عهده باستكمال دراسته القانونية ، ورغم وجود كثيرين من غيره من فطاحل الرجال والقادة

القادرين على منازلة المغتصب ـ ولكنهم اعتصموا جميعا بالاستكانة ، وجبنوا عن معـــارضة الاحتلال . وآثروا السلامة على المخاطرة ، والعيش فى دعة ورفاهية عن النضال والجهاد ، ابقاء على اموالهم وضياعهم ونفوذهم الاجتماعى بل ان جميع الذين تزعموا الحـركة الوطنية بعد موت مصطفى وفريد كانوا من طبقة كبار الموظفين ، الذين ضربوا المثل فى الطـــاعه والاذعان والاخـلاص للاحتلال ، ولذلك حينما وضعتهم الظروف فى منصب القيادة ، اهتزت المثل الوطنية القويمه فى نفوسهم ، وتعثر جهادهم ووقعوا فى أخطاء عديدة ، منها مساومة الاحتلال ومفاوضته مع بطلان مبدأ المفاوضة بين شعب أعزل ، ومحتل غاصب يرتكز حكمه على القوة والسلاح . أما مصطفى فظلت كبرياؤه الوطنية سليمة الى ان مات .. لم يخنع يوما ، ولم يساوم يوما ، ولم يقبل منصبا من الاحتلال وقال كلمته المشهورة « ان من يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحدة ، يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان » .

لم ينل زعيم مصرى شعبية أقوى مما ناله مصطفى كامل ولا نفوذا أكبر من نفوذه فى الشرق أجمع ، كان الخديو عباس الثانى والسلطان عبد الحميد وجلادستون والسير كامبل بانرمان رئيس وزراء انجلترا فى عهده ، يستمعون اليه بأذن صاغية ، ويقدرون رأيه الحصيف ، وعقيدته الراسخة ، وصراحته التامة .

كانت الأبواب تفتح أمامه ، والجمعيـــــات الأدبية والسياسية تتنافس على الاحتفـــال به ، والصحافة الأوروبية تتقبل مقالاته ، ورسالاته واحتجاجاته وكانت الأمة تعترف بأنه نعم الهادى ونعم الزعيم .

ولقد قال الصحفي الفرنسي (١) الشهير أوريان في كتابه « مصر فريسة الدخلاء » :

« لكي تنمو الاتجاهات والتطورات التي تعود على مصر بالخير والرفاهية ، ولكي تأتي التجديدات بنتائج خصيبة دائمة ، كان لابد لها من خطط حكيمة تسير وفقها . لم تستطع الحكومة ولا أقطاب الأمة أن يرسموا هذه الخطط لأسباب مختلفة ولكن مصطفى كامل أخذها على عاتقه في حزم وشجاعة ورسمها بنفسه . لقد خلق الزعيم الوطني مصر الحديثة وأيقظ الشباب من سباته ، بل وكهربه ، وأبان له واجبه القومي . ثم تم الاستيقاظ سريعا بعد ما كان كاملا . ان كل الناس انضمت تحت لواء هذا الخطيب الباسل استعدادا للجهاد بقوة وحماس . لقد عرف مصطفى كامل المصريين بأنفسهم لأنهم كانوا يجهلونها من قبل . لقد صاغ ضمائرهم على شكل ضميره ووضح لهم الطريق الذي يحقق أغراضهم لقد جعلهم يحسون بمدى تخاذلهم ، باعثا فيهم قوة الايمان والشعور بالفضائل والاهتمام بمستقبلهم كان يستحلف المصريين دون أن يحيد عن برنامجه السياسي — أن يحذوا حذو اليابان وأن يبزوا جيوشها ، وأن يبرهنوا باتحادهم على أنهم جديرون بالحرية التي يطالبون بها » .

ظل ذلك الزعيم الفريد في تاريخ مصر في جهاده طيلة خمسة عشر عاما ، مدفوعا بشعوره الوطني المتأجج اخلاصا ، يجوب أوروبا ، ويدلي بتصريحات ، ويؤلف كتبا ، ويصدر صحفا ومجلات وينشيء معاهد لكي يبعث الحياة في الشعب المصري ويعرف العالم بحقوقه الشرعية » .

(١) مصطفى كامل وكفاحه للدكتور أحمد رشاد .

وفى غداة دنشواى لم يخف أن يصيح . وقد أثار هذا الجور ثائرته : « لقد آن لى ان اخلع اللورد كرومر عن عرشه وكانت صيحة ابتسم لهـــا رفاق مصطفى ابتسامة اشفاق قائلين : « ما أشد غرور هذا الشاب واغرب اوهامه .. أفلا يرى ان بلاده فقدت كل قواها الحيوية وأسلمت قيادها الى المغتصب ! ولكن مصطفى لم يعبأ بسخرية الساخرين – بل وفى بالعهد ، وخاض مع جبار قصر الدوبارة غمار معركة انتهت بما انتهت اليه قبل ثلاثين قرنا ، المعركة التى دارت بين داود وجليات – أى بين الايمان والقوة ، وبين المثل الأعلى والمادة ...

وقد ظل صوته الجهورى يحرك النفوس المصرية طيلة أكثر من عشر سنوات ، بينما كان قلمه يستثير حماستها ويبعث فيها الثقة بمستقبل الوطن ..

لم يــكن مصطفى كامل موضع الاكبـــــار فى مصر فحسب ، بل كان له فى أوروبا عدد جم من الأصدقاء والمعجبين به ، وقد سأل المرحوم حافظ رمضـــان باشا مدام جولييت آدم الـكاتبة الفرنسية الشهيرة رايها فى مصطفى كامل بعد سنوات فردت عليه بالرسالة المؤثرة التالية :

« ما زلت أبكي من كنت أعده ابنا لى ، وقد أدركت منذ لقائنا الأول ما انطوت عليه نفسه من ألوطنية العالية ، ساعة فساعة ، وسنة فسنة ، عنيت به عناية الأم بابنها وكاشفنى بمقاصده مقصدا مقصدا .

وانى بوصفى فرنسية مرهفة الحس فى وطن مغلوب على أمره ، يفيض قلبها عواطف وطنية ، لا ازال ارغب له فى الثأر ، أستطيع أن أدرك تماما الآلام الوطنية التى

كان يعانيها وهو فتى ، ثم رجل ، ثم سياسى كبير ..

لقد نهض مصطفى كامل بكل ما يخطر على بال ، ويختلج فى ضمير ، لتسديد خطى بلاده فى سبيل الفوز بمطالبها المشروعة ..

نهض بكل ذلك وفى يده ميزان عجيب يضع فى احدى كفتيه الحماسة وفى الأخرى المهارة . كل ما كتبته عن مصر فى الصحف الفرنسية استوحيته من هذه القوة المزدوجة التى تجلت فى مصطفى كامل الى أبعد حد . وهى الشعور العميق بتقاليد أمة عظيمة فى ماضيها ، عظيمة فى ممكناتها . وكلما استوحى من تلقوا تراث مصطفى كامل تلك الخطة التى رسمها لأنصاره ، والتى اجملها فى هذه الكلمات : « العراقة والشجاعة فى العمل والمهارات فى اصطناع الوسائل وضعوا حجرا جديدا الى صرح الوطنية المصرية التى كان مصطفى كامل رافعه الأعظم » .

لقد وقف مصطفى كامل حياته على قضية واحدة ، أفنى فيها قوته وكيانه ، ونادى بحق مصر فى يوم نامت فيه القلوب ، وأصيبت بالتواكل ، مكتفية بما ناله أصحابها من جاه وثراء ، متقلبين فى نعيم الوظائف والمناصب ..

وكان حريصا جريئا يتمتع بأكبر قسط من الشجاعة الأدبية ، اذا رأى رأيا فحصه وأخرجه صريحا ناصعا حتى يكون دستور جهاده ، ولهذا لم يأخذ عليه التاريخ مأخذا ، ولم يجد الخصوم فى حياته ملمزا ولا مطعنا ، فترك لشباب الوطن وأجياله ذخيرة روحية غالية تعز على التثمين والتقدير ، تلك هى ذكريات حياته وكفاحه وتضحياته فى سبيل أسمى غرض وانبل غاية ..

العلاقة بين جهوده فى سبيل التعليم ودعوته الوطنية:

لقد كان كل سعى زعيم الوطنية الأول حينما بدأ فى الدفاع عن قضية بلاده ، مبنى على الاعتماد على فرنسا ، وحثها على اخراج الاحتلال من مصر وخطب أول خطبه السياسية فى ١٨٩٥/٧/٤ فى تولوز ، وقد نالت استحسانا كبيرا ، وبعد ذلك قدم عريضة الى رئيس مجلس النواب الفرنسى مشفوعة بصورة تمثيلية تعطى فكرة عن الاحتلال الانكليزى ، واستنجاد مصر بفرنسا محررة الشعوب ، وكان لتلك الخطوة أثرها فى العالم أجمع . وأخذ يجاهد ويناضل ، محدثا كبار رجال فرنسا عن اغتصاب بلاده ، متصلا بكبار الكتاب فى أوروبا ، مدليا بالبيانات والمعلومات الماسة بأمر بالاحتلال مظهرا استياءه فى المجتمع الأوروبى من ظلم الانجليز لبلاده ، وارباً بوطنه أن يكون غنيمة باردة لانجلترا ، وفريسة سهلة المنال للأسد البريطانى ، الذى استولى على البلاد بغير حق وبدون مبرر ، سوى ما دعت اليه الحالة بعد الثورة العرابية من الأمن والاستقرار ، ولقد تذرعوا بتلك الوسيلة حتى بعد هدوء الحال ، وانتشار الأمن والسلام .

وبعد جهد دام من سنة ١٨٩٥ الى سنة ١٩٠٠ قضاه فى التجوال فى أوروبا عاملا نشطا بلا توان ولا فتور ، انهار أمله فى فرنسا لما يأتى :

١ - ازاء الحركة الوطنية المتدفقة ضاعفت انجلترا جهودها لبلوغ غايتها فى مصر ، فحارب ممثل انجلترا اللورد كرومر هذه الحركة وطعنها من جانبين :

الأول : التعصب الاسلامى ليثير أوروبا المسيحية .

الثانى : عداوتهـا للأجانب ليؤلب الدول فى صف انجلترا .

وقد أنفق مصطفى كثيرا من جهـــوده لنفى هاتين التهمتين وانشأ جريدتين انكليزية وفرنسية لهذا الغرض وهما : لتندار اجبسيان ، ذى ستاندرد اجبسيان .

٢ - واصلت انجلترا المساعى السياسية حتى عقدت الاتفاق الودى مع فرنسا فى ١٩٠٤/١/٨ وبه حصلت على اطلاق يدها فى مصر مقابل اطلاق يد فرنسا فى مراكش ، وأقرت المانيا والنمسا هذا الاتفـاق ، وأقرت الدول الثلاث كذلك اتفاقية السودان سنة ١٨٩٩ التى فيها سلب حق مصر الواضح فى البلاد التى بذلت فيها دماء المصريين ، والمعدودة من أملاك مصر منذ تم فتحها فى عهد محمد على باشا وقد أيد لمصر هذا الحق بفرمانات الباب العالى .

وبهذا الاتفاق الودى ، تصـدع ركن هام من أركان سياسة مصطفى كامل فى دعوته الوطنية ، ولكن مصطفى لم يفشل ودخل فى قلبه الشك من نجاح دعوته . وعول على رجاء دولة الخلافة ودعوة الشعوب الاسلامية للالتفاف حولها كوسيلة جعلها من محور دعوته ، حتى اذا

تدخلت تركيا في قضية البلاد أمكن أن يتحقق لهـــا الجلاء . ولكن تزعزع رجاؤه من الدولة العلية للسبب الآتي :

أعادت تركيا الخلاف الذى أحدثته فى سنة ١٩٠٦ وذلك بأن أرادت ضم شبه جزيرة سيناء الى املاكها واخراجها من الأراضي المصرية مما أدى الى تدخل انجلترا حينما احتلت الحامية التركية بلدة تدعى طابة ، وأعلنت انها مستعدة الأن تؤيد مركزها فى مصر بالقوة ، وقـــد استمرت المشادة حينما كان فى غضونه يدافع مصطفى عن تركيا ، ولكن انتهت فى النهاية الى التسليم بمطالب انجلترا ، فانحل بذلك أمله فى معونة تركيا .

على أنه وهو الرجل الشديد الأمل فى دعوته ، العظيم التبصر فى الأمور ، بعد ما رأى فشل السياسة التى جرى عليها وهى الاعتماد على فرنسا ثم على أوروبا ثم على الباب العالى . آثر لنفسه خطة اخرى أجدى وأنفـــع وهى اعـــداد الأمة بأدوات الاستقلال من علم وخلق وغرس الايمان نفسها بنفسها ، لا لمجـــرد الـكراهية للانجليز ، ولا حبا فى الباب العـــالى ، ولكن حبـــا فى الاستقلال والحرية لذاتهما . وعلى ذلك بدأ السعى فى ترقية التعليم حتى يفى بالغرض المطلوب ويحقق النتائج التى تترتب على انتشاره وارتقائه ، ولقد قال فى خطبة مشهورة يوم ١٩٠٤/٦/٨ عن الموقف السياسى ما يأتى :

« لقد كنا منذ سنوات مضت نرقب الخلاص من دول الغرب ، ونتوسل اليهم بكل الوسائل ونطـالب المدنية وعودها وعهودها ، ونذكر الانكليز بتلك الأقسام المشهورة التي ملأ الآذان دويها ، ورددها الشرقيون والغربيون على

الســواء ، وكنا نقرأ على الفرنسيين ، صحيفة التاريخ التى جمعت من جلائل الأعمال وصلات الود ، ما تجعل الامم مدينة لبعضها ونحو نفسها بديون غالية .

ولكن هذه المساعى لم تثمر الثمرة المقصودة ، وقد رأينا الدولتين الفرنسية والانكليزية ، وقد كانتــــا بالامس العدوتين ، تتحالفان الآن على مصر ومراكش وتتفقان علينا بعد طول الاختلاف ، فهل تدعونا مثل هذه الاتفاقية لترك كل أمل فى مستقبل البـــلاد والتمسك بأذيال اليأس » .

ولقد ذكر فى احدى المقــالات التى كتبها فى جريدة اللواء السبب الذى من أجله أهمل التعليم فى بدء حركته معتمـــدا على أوروبا (ولما كانت آمال مصر معلقـــة بالسياسة الغربية من سنين ، وقد كانت التربية الأهلية مهملة ، على أننا متى صرنا احرارا وانجلى الانجليز عن ديارنا ، ورجعت الحكومة لأبنائها يسهل تحقيق أمانينا فى التربية والتعليم ، ولكننا بعد حادث فاشودة علمنا وعلم الناس أجمعين أن السياسة الغربية سياسة أهواء وأغرض ، وأن شـــعبا كشعب مصر يريد الرفعــــة بالمعارف ، ونشر الآداب والأخـلاق التى هى كفيلة بأن توصله الى غايته المنشودة » .

حالة التعليم قبل دعوته

لقد اخضلت شجرة المعارف بعد جهود العاهل العظيم محمد على الكبير ونهض التعليم نهضة عظيمة ، وانتشرت فى مصر المعاهد التعليمية لكل نوع من أنواع الثقافات، ولكل فرع من فروع الدراسات ، ولما دخل الاحتلال البلاد أخذ يقضى على كل معالم النشاط العلمى، ومظاهر البحث والثقافة ، فألغى كثيرا من أمهات المدارس الكبيرة .

ويمكننا حصر أسباب تدهور التعليم فى عهد الاحتلال لثلاثة أسباب :

١ ــ تدخل الانكليز الشائن فى وزارة المعارف فكثر عدد موظفيهم ، وانتشرت رقابتهم على كل شئونه . وزاد عدد مدرسيهم وصار للمستعمر الانجليزى اليد الطولى، والكلمة العليا والسيادة المطلقة فصاغوا التعليم بما يتفق وأغراضهم دون مصلحة البلاد .

٢ ــ أصبح التعليم غير صالح لتحقيق ما ترجوه البلاد من أغراض وانحصر فى أساليب بالية ، وبرامج ضيقة لا تنفع الا فئة قليلة تتلقى ثمالة المعلومات التى لا تصلح الا لتخريج موظفين فى دواوين الحكومة .

٣ ــ حرمان المصريين من جنى ثمار التعليم فى الخارج وكان الفاء الارسالية أكبر ما منى به التعليم فى ذلك الوقت .

وقد بترت العلاقات بين مصر وفرنسا وانخفض عدد مدرسيهم فى البلاد . ووقف نهر النهوض العلمى الذى كان جاريا من فرنسا منابعه الى مصر مصبه وانقطعت صلة الشباب المثقف المصرى بأوروبا .

ومع ما فعله الانكليز من المضار بالتعليم ، فقد أشاعوا انهم رقوا التعليم ، وأن نهوضه قائم على قدم وساق بجهودهم ، فلما علم بذلك الزعيم مصطفى كامل باشا ، انبرى لهم يبين كذبهم وغشهم .

ففى حديث له مع أحد المحررين الأوروبيين قال : « ان الانجليز كما نعلم هم القابضون على الحياة الأدبية بالبلاد ، وفى أيديهم معاول الهدم . فقد أكثروا من المدرسين الانكليز ليلقنوا العلم لقوم لغتهم العربية بالانجليزية ، وليقضوا على ما بقى من مكارم اسلامية ، وأخلاق أهلية ، واحساسات وطنية .. أليس لأنهم لو نشروا العلم الصحيح ، وأحسنوا الى البشر ، احسانهم الى نفسهم ، يسقطون من حالق مجدهم حيث تعرف الأمم حقوقها ، فتستردها منهم بقوة العلم » .

وفى حديث آخر مع المسيو ريزنرى المجرى مدير جريدة البتر لويد المنشور فى ص ٢٣٤ جزء ٦ من سيرة المرحوم مصطفى كامل باشا وذلك ردا على سؤاله عن عدد المدارس التى زادتها الحكومة مدة الاحتلال .

« ان حكومة الاحتلال لم تزد مدرسة واحدة على

المدارس التي كانت قبل سنة ١٨٨٢ ، فانه كان فى مصر مدارس للحكومة ، ومدارس لأوقاف المسلمين ، فأصبحت اليوم كلها تحت كنف الحكومة ، ولقد الغى الاحتلال مدارس كانت قبله زاهية فألغي مدرسة الطب البيطرى، ومدرسة الزراعة ومدرسة الآثار المصرية ، ومدرسة الخرس والعمى . ولا يبعد أن يلغى غدا مدرسة الطب بحجة وجود عدد كبير من الأطباء .

وقال عن الارسالية المصرية التى كانت تذهب الى فرنسا سنويا للعلم « أنه يكاد يجمد المداد عند محاولتى شرح حال البعثة المصرية تلك البعثة التى كانت زهرة مصر وعنوان ذكاء أبنائها ، ومحط آمالها ، وواسطة التعارف بيننا ، وبين العلم العصرى ، والتى كانت تذكر فى مقدمة بعثات العالم الراقى والحكومات الأهلية البارزة بأبنائها » .

وقد ذكر فى حديث آخر نشر فى ص ٢٢٦ جزء ٣ من سيرة مصطفى كامل باشا « لقد دخل الاحتلال فى مصر وفيها نحو سبعة آلاف تلميذ يتعلمون بالمجان أو بأجور قليلة ، فأصبح اليوم بعد ١٦ عاما (سنة ١٨٩٨) ثمانية آلاف يتعلمون جميعا بمصاريف ثقيلة يدفعها آباؤهم ، وبذلك حرم الكثيرون من أبناء الفقراء من التعليم » .

(وبعد ما كانت مصر تعتمد على عدد كبير من الأساتذة الفرنسيين لنشر التعليم بين مدارسها ، فقد أبى الاحتلال الا حرمان مصر من تلك الفئة التى تخدم الأمة أعظم الخدمات ، وبعد ما كان الأساتذة الفرنسيون ٤٢ أصبحوا ٦ مدرسين وبينما أخذوا فى القلة أخذ المدرسون الانجليز فى الزيادة فبلغوا ٢٨ مدرسا) .

واذا كان قضاء الانجليز على كل مظهر علمى فى البلاد يدل على شيء ، فلا شك أنه يود دفن العبقريات المدفونة فى قلوب الأمة ، والقضاء على كل فرصة يستنير فيهما المصريون فيفطنوا الى حقوق بلادهم ، ويثوروا للمطالبة بها ، ورد المغتصب عند حده ، واعلان حق الوطن) .

لقد شملت جهــود مصطفى كامل التعليمية جميع طبقات الشعب ، وقـد بدأ بالحث على تعـليم النشء تعليما كاملا وافيا بالفرض ، ولم يكن التعليم فى مدارس الحكومة يكفى لغرس الروح القـومية فى نفوس النشء بل بالعكس كان نازعا لـكل حب فطرى طبيعى ، فقـد درسوهم لغة الاحتلال مهملين لغة البلاد ،وحالوا بينهم وبين الاستزادة من تاريخ أبطال مصر الميامين واعاظم الذكريات التى تعيد فى نفوس التلاميذ حماسة أجدادهم ، وعظمة أسلافهم .

ازاء هـذا حث المرحوم مصطفى باشا كامل الأمة على انشاء مدارس أهليـــة تعوض قلة المدارس الحـكومية لتكاليفهـا الباهظــــة . وتفى بأغراض التعـليم وأهدافه وقد قال عن ذلك فى ١٨٩٨/١/٨ (وقد يعتقد الكثير من المصريين ، أن الحكومة مسئولة عن عمل كل شيء للبلاد ، فان قلت لهم أسسوا المدارس لتربية أبنائكم أجابوك هذا واجب الحكومة ، وان عرضت عليهم أى مشروع مفيد للوطن قالوا هذا من خصائص الحـكومة ولكن يجب أن تكون للأمة ارادة خاصة وأعمال ظاهرة) .

أخذ مصطفى كامل يقدم الأمثلة الصـــالحة ، والقدوة النافعة لبنى وطنه ليروه عاملا على ترقية التعليم ، فينهجوا نهجه ، فأنشأ مدرسة خاصة يعمل فيها على

تنفيذ المنهج الذى يصلح لانشاء جيل همــام من الأبناء المخلصين لوطنهم وليسهم عمليا فى ترقية التعليم ، وقد تأسست هذه المدرسة أولا بهمم بعض الفيورين وأطلق عليها اسمه وعرفت باسم « مدرسة مصطفى كامل » تيمنا بغيرته وتلبية لدعوته . وأهــدوها له ليتصرف فيهــا ، ويتكفل برعايتها ، ونظــارتها ، ومن مميزات مدرسة مصطفى كامل التى اختصت بهـــا دون غيرها النواحى الآتية :

١ ـ لقد حالت الأجور الثقيلة التى تتقاضاها المدارس الحكومية دون تعليم أبناء الفقراء فقبل مصطفى كامل ان يعلم أبناء الفقراء مجانا ويتقاضى من القــادرين مصاريف زهيدة .

٢ ـ عجزت مدارس الحكومة عن الايفاء ، ووقفت عند حد الاكتفاء بالمناهج القاصرة ، والغير صالحة لتحقيق امانى الوطن ، فعول مصطفى كامل على أن يجعــل من مدرسته نموذجا واضحا للتعليم المثمر المجدى .

٣ ـ كانت لغة البـــلاد مهملة فى المدارس الحكومية فجعل لها المكان الأول بين علوم الدراسة ، وأشبع الطلبة بحبها ، والخطابة بها بفصاحة .

٤ ـ اهتم بالدين وجعل له اهتماما خاصا ، وألف كتبا صالحة لنشر الأخلاق الفــاضلة ، ولفرس المناقب الحسنة ، وقد وافقت الهيئات الدينية على هذه الكتب.

٥ ـ أراد أن يحفز همم الطلبة ، فقرر الاحتفال سنويا بالنابغين الذين ينالون قصب السبق ، وتوزيع الجوائز المناسبة عليهم . وكان يصاحب الطـــلبة فى رحلاتهم المدرسية ويشترك فى ألعابهم ضاربا المثل الصالح أسوة

برجال التربية المثاليين .

ولقد كتب رحمـــــه الله الى مدير جريدة المؤيد فى ١٨٩٩/٣/٢٨ بعد فتح المدرسة (وانى أعلم أن حمل المدرسة ثقيل ، وأتعابها كثيرة ونفقاتها طائلة ولكنى قبلتها بـكل ارتياح أملا فى خدمة الوطن العزيز) .

وكتب الى مدام آدم فى ١٨٩٩/١٢/٢٤ يصف حالة المدرسة :

(واذا كانت الحكومة لاهية فان الأمة قد ابتدأت تعلم نفسها بنفسها . فان المدارس الأهلية التى أنشئت فى العام الماضى ، قد نجحت نجاحا عظيما ، وفى مدرستى اليوم ٢٦٥ تلميـذا كلهم من سـلالة مصرية ، وعلى أتم ذكاء وأنا نبث فيهم الشعور الوطنى بأكمل معانيه) .

ولقد اصغت الأمة لصوته العـــالى ، وخطبه المؤثرة ونصائحه المتكررة ، واندفعت وراء امامهـا تطيعه طاعة الحب والولاء ، فأنشأت مدارس أهلية على غرار ما أنشأ بعدما أيقنت من عظيم فائدتها وتمام منفعتها .

ومن الهيئات النافعـة التى كان لها قسط كبير فى تأسيس الدور العـلمية هى جمعية العـروة الوثقى ، وجمعية المساعى الخيرية وجمعية المساعى المشكورة ومن كبار الأعيان الذين سـاهموا فى مشروع انشاء المدارس الأهلية ، حسين بك قرة جوللى فقد أنشأ مدرسة بالحلمية بمصر والشوربجى بك فقـد اسس مدرسـة بمديرية البحيرة .

ومن خطبته فى حفلة مدرسة حسين بك قرة جللى :

« انى مهما شكرت لصديقى الهمـام حسين بك قرة

جوالى عمله ، فلن استطيع توفيته حقه من الشكر ، لأنه أول من استجاب دعوتى الى النهضة العلمية ، وأول من لبى فى هذه البلاد نداء وجدانه الطاهر الشريف » .

وقال فى خطبته فى حفلة مدرسة الشوربجى بك :

« علمتم أن يوما تفتح فيه دار للتعليم جديدة ، هو اليوم الذى يوضع فيه للمجد المستقبل أساس متين ، وينشأ له بنيان شاهق .. الى ان قال .. وليس فى تشييد المدارس واقامة المستشفيات والتنافس فى المبرات النافعة ، شيء يسر الوطن ويشرح صدره مثل نفى تهمة الموت الأدبى عن المصريين » .

وقال فى موضع آخر « فأجبهم يا من رفعت للعلم والوطنية منارا عاليا ، أجبهم بأن المصريين اتفقوا على أن يتفقوا » .

عناصر دعوته التعليمية :

اللغة : وقد سبق الكلام عنها ، ووجوب جعلها العنصر الأول فى التعليم الوطنى .

الدين : هو العنصر الثانى الذى يلى اللغة فى الأهمية، وقد حرم الطلبة فى مدارس الحكومة من الثقافة الدينية الكافية ، وضعفت فيهم المبادىء اسلامية الرائعة ، فوضعت مدرسة مصطفى كامل نصب عينيها الاهتمام به اكبر أهمية .

التاريخ والتربية الوطنية :

كانت المناهج المدرسية في عهد الاحتلال خالية مما يشعر الطلبة بالعزة بمفاخر تاريخهم ، وجليل ماضيهم لذلك عول مصطفى كامل على استكمال هذا العنصر الهام في تربية الوطنية في نفوس الشبيبة المصرية منذ طفولتها وفي ذلك يقول في خطبة له بعنوان « بما نصير رجالا » « وقد أصبح لنا مدارس كثيرة ومكاتيب أهلية ولنا تلاميذ نجباء ، ولكن بما نصير رجالا بتعليم التاريخ تعليما حسنا، وتعريف الأطفال بجمال مصر وغرس حبها في نفوسهم ، أما ما نقصده من تعليم التاريخ هو :

أ ــ تكييف الفضيلة أمام التلميذ آتم تكييف ، وتمثيل الرذيلة أشنع تمثيل .

ب ــ أن الأمة هي مجموع عظيم له السيادة على البلاد وأن الحاكم وكيل عنها ، لها أن تغيره متى رأت فيه اعوجاجا .

جـ ــ ان العبرة الكبرى التي يلقيها علينا تاريخ الإسلام هي ان هذا الدين دين العزة والكمال وان انحطاط أحوال المسلمين (في عهده) بسبب اهمالهم العمل بمبادىء الدين .

د ــ تعريف المصري أنه من سلاله الأمة المصرية القديمة ، فهو من سلالة أئمة المدنية والحضارة .

منذ عهد محمد على . كانت الحكومة المصرية ترسل بعثة سنوية من الشباب الى فرنسا للتزود من الثقافة الغربية . ولما وقعت البلاد تحت نير الاحتلال البريطانى ألغيت هذه البعثة ، وخسرت مصر بالغائها خسارة علمية فادحة ، ولم يكن من الممكن تعويض هذا النقص فى وسائل نشر الثقافة الا بانشاء جامعة كبيرة تكون بمثابة الأساس الذى تقوم على قواعده نهضة علمية وفنية شاملة لتؤهل مصر أن تتبوأ مكانتها السابقة فى الحضارة والرقى .

وقد شعر مصطفى كامل بمدى التفوق العلمى فى الغرب عنه فى بلادنا ، بفضل جامعاته . فأراد لمصر أن تنشأ بها جامعة كبيرة ، تقوم بالتدريس فيها نخبة من أساطين العلم الحديث والبحث الدقيق ، على قاعدة من الافاضة والتوسع لتخريج طبقة ممتازة من رواد العلم والمعرفة ، تسود على أكتافهم حركة البحوث فى مختلف الدراسات ، وتصل بهم الى الصعود الى ذرى النبوغ والعبقرية فى الاستنباط والابتكار والاختراع ، وعلى عاتقهم نشر العلم والثقافة فى طول البلاد وعرضها .

فلم يكتف بأن يكون طلب العلم مقصورا فى مصر على

الوضع الذى كان فى عهــده بل طمح فى ان يرى بين مواطنيه طائفة تطلب العلم حبا للعلم ، وشوقا لاكتشاف المجهول وسبر غور المعضلات الفكرية، حتى يرى من أبناء مصر ، كما فى البلاد الأخرى ، عالما يحيط بكل العلم الانسانى فى مادته ، واختصاصيا أتقن فرعا مخصوصا ووقف نفسه وجهوده على الالمام بجميع ما يتعلق به ، وفيلسوفا اكتسب شهرة عالمية يشرف بها وطنه ، وكاتبا ذاع صيته فى العالم بأمثال هــؤلاء تمتلى مصر منصة المجد والفخار وتجــارى الأمم فى مضمار التسابق العلمى والأدبى .

وقد سبق جميع المفكرين فى الدعوة لهذه الفكرة ، فكان صاحب الفضل الأول فى انشاء الجامعة المصرية .

ولقــد أرسل الى مدام جولييت آدم بتـــــاريخ ١٩٠٥/١/١٣ خطابا يقول فيه : « لقد نشرت يوم الأحد الماضى فكرة باهرة بمناسبة عيد ارتقاء الخــديو على العــرش وهى تأسيس جامعة وطنية فى القـــاهرة ولا حديث للناس فى غيرها » .

وقد كتب لها أيضا فى ١٩٠٥/٢/٣ يقول :

« وقد اختتمت نشـــاطى الصحفى بالدعاية لمشروع الجامعة بمقالة أرسلها اليك مع هذا ، والناس جميعا موافقون استحسانا لهذه الفكرة ، وقد (١) وضع حسين باشا واصف نفسه ، فى احسن موضع ازاء هذا الموضوع، وقد وعد بالتبرع بمبلغ ألف جنيـــه فى اليوم الذى تتألف فيه لجنة لافتتـــاح اكتتاب وطنى ، يخصص للجامعة » .

---

(١) شقيق مصطفى كامل من ناحية والده

وكتب لها فى ١٩٠٥/٦/٩ يقول :

« أن فكرتى بانشاء الجـــامعة الوطنية قد توجت بالنجاح ، فانها انتقلت الى أيدى أمراء بيت (حليم) وقد قرروا مبدئيا ايفاد فريق من الطـــلاب الى أوروبا لتخريج أساتذة وطنيين ، وبلغ الاكتتاب الآن ثمانية آلاف جنيه ، وسنشرع فى بقيــة الاكتتاب بعــد انقضـــاء الصيف » .

وفى سبتمبر سنة ١٩٠٦ دعا المرحوم محمد فريد بك الى تأليف لجنة للاحتفال بعودة مصطفى امل الى مصر عقب جهاده فى حادثة دنشواى ، ولما سمع بذلك أرسل اليه من باريس فى ٢٤ سبتمبر كتابا يعتذر فيه من عدم قبول هذا الاحتفال ، ويقترح فتح اكتتاب عام لتأسيس الجامعة المصرية . وتخصيص ما جمع من مال للمشروع .

وقد تجددت الفكرة فى انشاء الجـامعة عقب حادثة دنشواى ، وتألفت لجنة تأسيس الجامعة واجتمعت لأول مرة بمنزل المرحوم سعد زغلول (وكان لا يزال بمحكمة الاستئناف) يوم الجمعة ١٢ اكتوبر سنة ١٩٠٦ ، واختير سعد زغلول وكيلا للرئيس ، وقاسم أمين سكرتيرا للجنة، وتركت الرئاسة ليتولاها احد الأمراء ، ونشرت الدعوة للاكتتاب . وبدأت فعلا ، وكان هذا الاجتماع هو نواة تنفيذ المشروع .

وقال المرحوم محمـــد بك فريد فى خطبـــة له فى ١٩٠٨/٤/١٧ صراحة ما يلى :

« تعلمون ان المرحوم مصطفى كامل باشا هو صاحب مشروع الجامعة المصرية وقال به من عهد ان شرع فى الاحتفال بمرور مائة سنة على تولية محمد على باشا على مصر .

أثره في الصحافة

اتخذ مصطفى كامل قلمه وسيلة من وسائل دعوته القومية ، فكان يرسل مقالاته الى الصحف المصرية كالأهرام والمؤيد ، وقد ولع بمراسلة الصحف منذ عهد التلمذة . وكتب فى أمهات الصحف الأجنبية ، ثم راى من الألزم له أن يكون له جريدة يومية تكون صلة دائمة بينه وبين الرأى العام ، ويستطيع أن يغذى بها عقول القراء ونفوسهم بمبادىء الوطنية وتكون رمزا لهذه الحركة التى قادها ووهب حياته لها ، وقد اختار لهذه الجريدة اسم « اللواء » فكان اختيارا موفقا ، لأن الوطنيين التفوا حوله ، والتفت أقلامهم عليه .

وكان ظهور « اللواء » سنة ١٩٠٠ من أبرز أعمال مصطفى وأكبرها أثرا فى الشعب وفى الحركة الوطنية فقد ارتفع شأن الجريدة فى عالم الصحافة وأخذت مكانتها فى نفوس القراء ، وصارت شبه مدرسة تعلم المصريين حقوقهم وواجباتهم ، وتدعوهم الى الأخلاق النبيلة القويمة ، وتبث فيهم الروح الوطنية ، وتبصرهم بحقائق ما يدور حولهم ، وتشرح لهم مساوىء الاحتلال ، وتدعوهم الى الجهاد فى سبيل الاستقلال ، وتذكرهم بالحوادث الماضية ، وتحدثهم عن جهاد الأمم فى سبيل

حريتها ، وكان اللواء حين صدوره فى اول الامر فى اربع صفحات ، ثم ما زال يرقى به حتى جعله فى ثمان ، ثم أصدر مجلة شهرية دعاها « مجلة اللواء » . كانت تشمل على أهم المقالات التى تنشر فى صحيفة اللواء اليومية ، كما أصدر جريدة اسبوعية باسم العالم الاسلامى ، نشر فيها المقالات والأنباء التى تهم الأمم الاسلامية ، ولا سيما تعريب ما تكتبه الصحف والمجلات الأجنبية عن الأمم الاسلامية . وكان غالبا ما يكتب المقالة الافتتاحية فى جريدة اللواء .

وقد بلغت جريدة اللواء شهرة كبيرة فى عالم الصحافة حتى أن جريدة (الاجيبشيان جازيت) قالت « ان اللواء اكثر الجرائد العربية انتشارا ليس فى مصر بل فى جميع العالم على الأرجح .

أثره فى الصحافة الأجنبية :

أجاد مصطفى كامل اللغة الفرنسية وأتقنها كتابة وخطابة ، وأعانه ذلك على الاتصال بالأجانب المقيمين بالبلاد ، وتعريفهم حقيقة الحركة الوطنية ، فكان يخطب فيهم باللغة الفرنسية فى فصاحة وقوة وبيان ، كما كان يرسل مقالاته الى الصحف الأجنبية التى تصدر فى الخارج وعلى رأسها جريدة الفيجارووالطانالفرنسيتين . وقد بلغت قدرته الصحفية أوجها حين أصدر صحيفتين احداهما فرنسية تدعى لاتندرار اجيبشيان ، وانجليزية هى ايجيبشيان ستاندرد واختار لها صفوة ممتازة من المحررين الفرنسيين والانجليز ، كما كان يرحل الى أوروبا وينتقل بين عواصمها يخطب فى الأوساط المختلفة

للدعاية للقضية المصرية . مما كسب لدعوته الانصار العديدين فى أوروبا .

وان قيام مصرى باصدار ثلاث صحف يومية كبرى بثلاث لغات مختلفة هى مهمة تنوء بها العصبة وأصحاب العزيمة من الرجال والجماعة ، فما ظنك بشخص بمفرده يتولى الاشراف على هذه الجريدةوتوجيههاالأغراض سياسية معينة ، بل كان يشرف بنفسه على تحريرها وادارتها ، وتتمشى روحه فى كل كلمة منها ، بحيث لم يؤخذ على أى صحيفة منها انها نشرت يوما مقالة أو نبرة تخالف روحه ومذهبه .

وكان لجريدتيه الأجنبيتين مراسلون بباريس ولندن يرسلون اليها تلغرافيا خلاصة ما ينشر فى الصحف الاوروبية عن مصر فى حينه .

سعيه فى تقدم الصحافة المصرية :

وقد بلغ من تعلق الزعيم الوطنى بترقية الصحافة ورفع شأنها ، أن اهتم بتدريب وتعليم بعض الشباب المصرى على أساليب الصحافة فى الخارج ، أن أوفد بعثة صحفية الى أوروبا فى أكتوبر سنة ١٩٠٧ ، وبدأ بارسال الشاب المصرى سيد على أحد محررى جريدة اللواء ، وألحقه على نفقته الخاصة بمدرستى العلوم السياسية وفن الصحافة بباريس ، كما رشح أحد تلاميذه المخلصين وهو المرحوم عبد الرحمن الرافعى المؤرخ الوطنى الكبير للذهاب لبعثة صحفية عقب تخرجه فى الحقوق ولكن المنية لم تمهله وانتقل الى الرفيق الأعلى قبل أن ينفذ فكرته .

فضله على الحركة الوطنية :

هو امام الوطنية فى مصر فى نهاية القرن التاسع عشر وانبلاج القرن العشرين بلا منازع وليس فى مصر فحسب بل فى الشرق العـــربى . وان قيامه ضد أكبر دول الاستعمار وهى فى أوج قوتهـا لهو أكبر وأوضح مثال خالد للبطولة والاخلاص والتضحية ، ولا غرو فى ذلك فالوطنية كانت عقيدته وشعاره منذ أن كان طالبا نشأت فيه دون أن يتلقاها عن معلم أو يقتبسها من العصر الذى ظهر فيه ، لم تكن نتيجة درس أو تعليم بل كانت وحى الالهام والعبقرية وليس أدل على ذلك من انه حين نال شهادة الحقــــوق سنة ١٨٩٤ ، لم يتبع ما درج عليه معاصروه من اختيار منصب فى الحكومة ، أو الانتظام فى سلك المحاماة ، بل وقف حياته على ما عاهد عليه الوطن من المحاماة عن الأمة ، والعمل لاســـتقلالها وحريتهـا وكرامتها ، وقد صدق وعده ، اذ كانت سنوات حياته كلها وقفا على الجهاد رافعـــا صوت مصر فى الداخل والخارج ، ينادى بحريتها واستقلالها ، مستحثا مواطنيه على الالتفاف حول راية الجهـــاد والأمل حتى تفتحت الأذهان على توالى السنين الى قبول دعوته ، ثم جاءت سنة ١٨٩٨ ووقعت فيها حادثة فاشودة ، فصـدمت الحركة الوطنية صدمة زلزلت الأمل الذى أحياه مصطفى فى النفوس ، بدأت تلك الحادثة بتنازع فرنسا وانجلترا على المسألة المصرية ، وكان الظن أنها تنتهى بجلاء الانجليز عن مصر ولكنها انتهت على العكس بتراجع فرنسا ورسوخ اقدام الاحتلال فى وادى النيل فيئس المصريون وانصرفت نفوسهم وقتا ما عن الاستماع الى النداء الوطنى ، ولكن

مصطفى كامل لم ييأس ولم يتراجع ، بل استمر ماضيا فى جهاده ، وعول من ذلك الحين على عدم الاعتماد على فرنسا وفقد أمله فى عدالة أوروبا عامة منذ رأى جمودها أمام مأساة البوير سنة ١٩٠٠ وتركها اياهم يسحقون أمام القوات الانجليزية دون أن تأبه اهم ، فدعا الأمة الى الاعتماد على النفس ومتابعة الجهاد ، وأنشأ اللواء سنة ١٩٠٠ فكان مدرسة الوطنية للمصريين .

وبعد الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤، الذى بمقتضاه أقرت فرنسا الاحتلال الانجليزى ، صدم المصريون أسوأ صدمة فى نفوسهم ، وتخلى معظم كبراؤهم وعظماؤهم ورجالهم المعدودون عن الحركة الوطنية ، ورأى كثير منهم أن الخير لهم فى مسالمة الاحتلال والانضواء تحت لوائه ، واكتساب رضاه ، ولكن مصطفى كامل خالفهم واستمر فى طريقه يحمل علم الجهاد ، لا ينى ولا ينثنى ، مناديا بالجلاء ، وقال كلمته المشهورة « لا معنى لليأس مع الحياة ، ولا معنى للحياة مع اليأس»، وحقق هذه الكلمة فى حياته عمليا ، فلم يعقد اليأس بين جنوبه معقدا ، ولم تثبط همته الكوارث المدلهمة ولا زعازع الأحداث وصمد للعقبات والعراقيل ، يتغلب عليها بقوة العزيمة والايمان ، وبتأثير دعوته ووطنيته ومثله الأعلى نشأ جيل من المصريين أشربت نفوسهم الوطنية الحقة وحب الحرية والاستقلال ، ودرجوا على الأمل والحياة ، وتعددت مظاهر هذه الحياة الجديدة ، وأهمها تأسيس نادى المدارس العليا سنة ١٩٠٦ اذ اجتمعت فيه صفوة الشبيبة المصرية المثقفة وتشبعت بتعاليم الفقيد ومبادئه ،متعاهدة على الاخلاص فى خدمة الوطن ، ثم كانت حادثة دنشواى فى يونيو سنة ١٩٠٦ حمل فيها

الفقيد على الاحتلال وسياسته الحملات الصادقة ، ومن ثم انتشرت تعـــاليمه ومبادئه حتى سرت الى طبقات الشعب كلها .

وكانت سنوات ١٩٠٦ ، ١٩٠٧ وأوائل سنة ١٩٠٨ من حياته الخالدة حافلة بجلائل الأعمـــال ، فيهـا أصدر جريدته الفرنسية والانجليزية ، وسارع الخطى بموكب الدفع الثورى رغم ما شـــعر به من دبيب المرض يؤرق جفنيه ، من شدة ما استنفد من قواه فى جهــــاده المتواصل .

وما زال يجــاهد ويناضـــل حتى ذوت زهـرة شبابه فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره .

ان الثمانية عشر سنة التى قضاها الفقيد فى الجـهاد هى أساس النهضة الوطنية فى القرن العشرين فهـــو باعثها ومحييها ، وبانيها وسط الشـــدائد والعقبات ، ومدعمها بالايمان والشجاعة والثبات ، ومغذيها بالاخلاص والتضحية ، مات فى ميدان الجهاد كقائد الجيش فى ساحة الوغى ــ يرى الخطر محدقا به ، فلا يكترث له ، ويتقدم الصفوف ليستشهد فى سبيل الواجب ، أو كما قال الزعيم محمد فريد « مات رئيسنا فى ساحة الوغى كالقائد يعانى سكرات الموت ويده تشير الى جنده بالتقدم الى الأمام » .

فالروح التى بعثها مصطفى كامل فى الأمة هى التى صارت على مر السنين غذاء الحركة الوطنية ، وهى التى مهدت السبيل لثورة سنة ١٩١٩ التى اعتاد الكثير من الكتاب أن يجعلوها مبدأ الحـركة الوطنية وهم فى ذلك

مخطئون ، لأن الثــورات ليست حركات ميكانيكية تبدو فجأة للناظرين ، بل هى حوادث اجتماعية ، تتمخض عنها حياة الشعوب تبعا لدرجة استعدادها ونتيجــة لسريان روح الوطنية فى نفوس أبنائها ، فلولا الوطنية التى بثها مصطفى كامل فى نفوس المصريين خلال الثمانية عشر عاما التى قضاها فى الكفاح لمرت سنة ١٩١٩ كما تمر غيرها من السنين دون أن تتجلى فيها روح الثورة ، فالثورة هى غراس الوطنية والوطنية هى نتيجة جهــاد مصطفى كامل المتواصل طوال هذه السنين .

جهاده الوطنى فى أوروبا

قبل أن تنشأ المؤسسات العــالمية بل قبل أن تولد الروح الدولية ، التى تجمعت براعمها بعد الحرب العالمية الأولى ، وتفتحت أكمامها بعد الحرب العالمية الثانية ، كان مصطفى وطنيا عالميا ، أدرك باحساسه أن مصر بلده الحبيب ، خلقت بين القــارات وفى بيئة الحضارات ، لتلعب أبدا دورا خاصا بها ، لا يشاركهــا فيه مشارك ، ذلك هو دور احتضان بذور الأفكار الانسانية ، دور خدمة البشرية المطلقة المجردة من قيود الجنس واللون .

ولمــا خرج مصطفى كامل الى الأفق الفسيح ــ الذى وجده فى انتظاره فى أوروبا ، تأكدت عنده النزعة الانســـانية ، فتدارك أن قضية بلاده ، لا تهم المصريين وحدهم ، وانما هى قضية انجلترا وتركيا ، قضية الاسلام والمسيحية ، قضية الامتيازات لأهل أوروبا فى الشرق كله ، ووجد أن له خصوما من السياسيين والماليين ورجال الدين ، كما وجد أن له أصـــدقاء من هؤلاء جميعا ،

وسمع اسم بلاده يتردد فى النمسا والمانيا وايطاليا وبلجيكا ، وفى كل مكان يضع فيه قدمه ، ومع ذلك رأى أن أكثر الذين يذكرون اسم بلاده لا يعرفون عنها شيئا فهى عندهم اما مشكلة سياسية واما أرض تدر الذهب ولكن ليس لأهلها فى الحالين وجود أو اعتبار .

وهذا كله فتح لمصطفى كامل حاسة سياسية يفهم بها أن أهم سلاح يشهره فى وجه أعداء بلاده هو الدعاية .

وقد فهم مع ذلك ايضا ان عالمية القضية المصرية ، ودولية أساسها تلزمه أن يضع لها قالبا دوليا ، ولذلك فقد سبق مصطفى كامل العقلية الدولية التى انتهت الى تقرير ان المعاهدات الثنائية تؤدى الى انقسام الأمم الى معسكرات ، لأن كل دولتين يرتبطان بمعاهدة انما يثيران بهذه المعاهد مخاوف دولة ثالثة ، فتضطر الى ارتباطها بدولة رابعة ، وهكذا دواليك كما سبق هيئة الأمم المتحدة الى القول بأن كل معاهدة بين قوتين هى عقد باطل لأنه مشوب باكراه ضمنى أو صريح .

ولذلك كانت الرسالة السياسية الأولى التى بدأ بها آثاره القلمية بحثا فى مخاطر الاحتلال البريطانى لا على مصر وحدها بل على فرنسا وبقية العالم الغربى .

وقد فتحت هذه الرسالة قلب مدام جولييت آدم ، ففهمت فى التو ، أن مصطفى كامل عنصر جديد من عناصر السياسة الدولية ، وأن فى التفريط فيه تفريطا فى أمر يهم بلادها وينفعها .

وعلى هدى الدستور الذى رسمه مصطفى كامل لنفسه ، أصبح يوزع وقته بين عواصم أوروبا ومصر ،

ومن العمل فى الصحافة والـدعوة للتعليم وللصناعة ، مؤمنـــــا بأن الدعوة السياسية لبلاده بغير اصلاح فى الداخل لا تنتج ، ولأن العقل السياسى فى داخل مصر ، دون تحريك عناصر القوة فى أبنائها بتعليمهم ، وتنظيم اقتصادهم ، يكون ضربا من النقش على الماء .

ولقد بعثت حركة مصطفى كامل الوطنية حركة ذهنية، تؤثر فى المثقفين ، وتشع دائرتها بينهم شيئا فشيئا ، ولكن لم يكن مناص من أن تتحول الى حركة قومية تصل الى شعور الملايين من أبناء الشعب الكادحين ، فتنتقل بها ، شأن كل حركة (أصيلة) غير عارضة وقد وصلت الى هذا الطور فعلا ، بعد تدرج طبيعى ، فقد جاءت حادثة دنشواى فى ١٣ يونيو سنة ١٩٠٦ لتوقد شرارة الاتصال بين مصطفى كامل والشعب وبرز مصطفى من خلال هذه المأساة الصغيرة بطـلا كبيرا ، وتحولت بفضل شخصيته كارثة قومية ، وزادت ضخامتهـــــا فأضحت فضيحة سياسية تتحدث عنهـا كبريات الصحف ، وتفيض فى وصفها أنهارها ، ولم يعد مصطفى بعدها صحفيا كبيرا فحسب ، أو خطيبا يحادث المتعلمين فقط ، وانما أصبح رمزا للدفاع عن الشعب فلاحيه وفقرائه وأثريائه وعماله، فكملت بذلك الحركة ، فلما قبض مصطفى الى رحمة الله ، كانت جنازته وتشييع جثمانه ، ميلادا للحـــركة الوطنية الشعبية التى لم يعد فى مقدور احد أن يحبسها أو يفرض عليها القيود ، أو يقيم فى وجه انطلاقها العارم السدود (١) ...

---

(١) كتاب مصطفى كامل لفتحى رضوان .

دعوته فى سبيل الدستور

الدستور : الدستور هو أهم سمات المجتمع الديمقراطى وبدونه لا تقوم قائمة لأى مجتمع ، حر ، بدأ مصطفى كامل يدعو للفكرة الدستورية وهو بعد طالب فى مدرسة الحقوق ، فأخذ يشرح فى مجلته الصغيرة « المدرسة » أنظمة الحكم من ملكية مطلقة ، وملكية مقيدة وجمهورية ، كما يشرح هيكل الحكومة الدستورية من سلطة تشريعية وسلطة قضائية وسلطة تنفيذية ، وشرح مسئولية كل سلطة وبين أن السلطة التشريعية أقوى السلطات من حيث سنها للقوانين واللوائح وان السلطة التنفيذية هى المأمورة لها ومتى فازت الأمة من الحضارة بالقدح المعلى كانت قوتها التشريعية مستقلة كاملة الاستقلال متمتعة بقوة التشريع الحقيقية ، وبعكس هذه الأمة التى عم الجهل أبناءها وتحكم الفشل بين أفرادها نرى حكومتها مستبدة طاغية ملكها ملك بيديه كامل التشريع والتنفيذ ، وقال فى عدد آخر من مجلة المدرسة فى ١٨٩٣/٥/١٧ وهو يتحدث عن الملكية الديمقراطية المطلقة فيقول عن الأخيرة « والحكومة التى فيها السلطة مطلقة للملك تكون مركزا للظلم ومحطا للاجحاف » .

وقد كتب بعد ذلك فى اللواء فى العدد الثالث من هذه الصحيفة الجديدة الصادر فى الخامس من يناير ١٩٠٠ مقالا بعنوان «الحكومة والأمة فى مصر» طالب فيه الانجليز تحقيق وعد اللورد دوفرين بجعل الحرية والعدالة أساسات قوية متينة لا تستطيع يد بشرية انجليزية أو مصرية أن تمسها بسوء » وفى ١٩٠٢/١١/١٦ كتب تحت عنوان (افلاس الاحتلال) » :

« عندي ان هذه الأدوار والأداء المتنوعة (فى وزارة المعارف والداخلية) والتى تدل على شدة الحاجة فى هذه البلاد الى مجلس نيابى تكون له السلطة المطلقة الكبرى فلا يسن قانون بغير ارادته ولا تعلو كلمة على كلمته والا فان السلطة في يد رجل واحد ســـواء كان مصريا أو أجنبيا يضر بالبلاد كثيرا ويجر عليها الوبال » .

وفى خطبتـــه فى ١٩٠٢/٥/٢١ بمسرح زيزنيـــــا بالاسكندرية فى الذكرى المئوية لاعتلاء محمد على عرش مصر قال :

١ ـ انما الدستور هو منح الأمة حق الاشراف على الأعمال كافة ومراقبة ما تجريه الحكومة لخيرها أو لضرها وسؤال الوزارات عن كل صغيرة وكبيرة ، وتغييرها بغيرها اذا أساءت استعمال السلطة أو تهاونت فى خدمة البلاد . الدستور هو الا يستطيع أحد مهما كان عظيما ، وطنيا أو أجنبيا ، أن يمس القوانين والأنظمة بشيء .

دعوته الاجتماعية

أ ـ اتحاد العنصرين

ان كل مجهودات هذا الزعيم آيات بينات فى كتاب حياته ، ونجوم ساطعات فى سماء جهاده ، ولئن امتازت الآيات عن بعضها فى القوة والروعة ، واختلفت النجوم وتباينت فى الجمال والسناء ، فان أبرز آيات جهاده المبرور توحيد عنصرى الأمة ، والسعى فى الائتلاف المتين بين الأقباط والمسلمين . ولا شك أنه سعى فى سبيل هذه الغاية حتى يوجد امة واحدة مرتبطة ، لا يعمل فيها داء التعصب المقوت ، ولا تنتشر بين صفوفها امارات التفرق والتشقق ، وبذلك أمكنه قتل جرثومة التفريق ، وليدة المصالح الحكومية ودعامة السياسة الاحتلالية ، ولقد ضرب على هذا الوتر الحساس ليسمع كل مصرى مخلص لوطنه ، فلا يدع للفروق الدينية أساسا فى علاقته مع أخيه المصرى . وبتلك الخطة والحكمة أفسد على الانجليز خططهم ، وأفسد عليهم تدبيرهم ، وأظهر أمام الملأ حيلهم المستورة المكونة من التلفيق والاختلاق الكاذب ، وخلق التهم الباطلة عن تعصب المصريين كلما أعيتهم الحيلة وأعياهم المنطق والبرهان عن تبرير سياستهم والاحتجاج عن عدم الجلاء وهم يقصدون بذلك

استغلال شعور الأوروبيين الدينى ، لاثارتهم ضد مصر ، ولكسبهم قوتهم لجانبهم وقد وجدت دعوة مصطفى ترحيبا عظيما من الأقباط واقبالا وتعضيدا .

وقد أخطأ كثير من الكتاب بنسبة الفضل فى اتحاد العنصرين الى سعد زغلول ، وهذا خطأ تاريخى واجحاف لا مسوغ له ، والحقيقة أن مصطفى كامل هو أول زعيم مصرى مسلم دعا الأقباط الى الجهاد الوطنى معه وهو قد اصطفى شخصيتين كبيرتين من خيرة الشخصيات القبطية فى عهده وهما الأستاذان ويصا واصف ومرقص حنا ، فكانا من أكبر أنصاره وأعوانه فى الجهاد . وأولهما كان مشهورا باقتداره على الخطـابة الفرنسية فى المؤتمرات الوطنية فى الخـارج . وقد أنتخب ويصا واصف فى اللجنة الادارية للحزب سنة ١٩٠٧ .

وقال فى خطبته بالاسكندرية فى يوم ٨ يونيو سنة ١٨٩٧ :

« ان المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد » .

ثم ندد بالتعصب واستنكر أية محـاولة للشـقاق والبغضـاء بين عنصرى الأمة ، وذلك فى خطبتـه بالاسكندرية يوم ٢ يونيو سنة ١٩٠٠ حين قال :

« كيف يستطيع رجل وطنى أن يدعو للشـقاق والبغضاء ، وهذه الدعوة مناقضة للوطنية الصحيحة ، فالأقباط اخوة لنا فى الوطن تجمعنا بهم أشرف رابطة وقد عشنا معهم القرون الطـوال على أتم وفاق وأكمل اتفاق .

وهكذا كان مصطفى كامل أول البانين لدعامة الارتباط الوطنى المقدس بين الاقباط والمسلمين ولقد كانت العلاقة الوثيقة بين مصطفى كامل والكاتبة الفرنسية الشهيرة مدام جولييت آدم دليل على روح مصطفى كامل ، قد احبها محبة الابن للأم ، واعتبرها امه الروحية وطلب منها الرعاية المعنوية ، واستشارها فى كافة الشئون السياسية ، وهى امرأة مسيحية وهو شاب عربى مسلم، ومن يطالع الخطابات المتبادلة بينهما يدرك لأى مدى بلغت هذه العلاقة من العمق والوفاء والتقدير المتبادل ، وقد تأثر جهاد مصطفى كامل فى أوروبا بهذه العلاقة الوثيقة، وبفضل مدام جولييت آدم ، استطاع مصطفى كامل أن يتعرف على كثير من أعلام السياسة والأدب والصحافة فى اوروبا ، مما ساعد للدعاية لقضيته الخالدة ووصول صوت مصر الى شتى الأنحاء فى الشرق والغرب » .

ب ـ الداء الأجنبى

لم ينثن مصطفى كامل لحظة واحدة عن تنبيه قومه الى أخطائهم ولم تغمض له عين على النقائص التى يراها منتشرة فى عهده ومن اشد تلك الأدواء فتكا هو الداء الأجنبى الذى دخل المجتمع كأثر من آثار الاحتلال الذى شجع على تغلغل الأجانب فى البلاد .

لقد وجد المصرى يحتقر أخاه المصرى ، والغنى العظيم ينظر الى أخيه المصرى الذى دونه جاها ومقاما نظرة الاحتقار والازدراء ، بينما يحترم الأجنبى احتراما لا مزيد له . ان تفضيل الأجانب وتكريمهم أكثر من المصريين عار كبير فى جبين المجتمع ولوثة قذرة فى صدر الوطنية

المصرية ، وبقعة قبيحة تصم المصريين بوصمة الانشقاق والجهل ، وعدم احترام أنفسهم .

ولم يكن تكريم المصريين للأجانب صادرا عن الكرم المشهود به عنهم ، ولكنه راجع الى مركب نقص بهم دفعهم الى تقدير الأجانب واكبارهم عن ابناء جنسهم وارومتهم ، وهذا داء وبيل ، يؤدى الى انفصام العرى الوثيقة بين ابناء الوطن الواحد ، وايجاد الفواصل بين الطبقات وتشتيت الجهود المجتمعة لنصرة البلاد .

وقد نبه الزعيم أبناء وطنه لما يترددون فيه من مهاوى السقوط الشنيع ، وما يصدرونه من دلائل الخيانة الشنيعة لبلادهم . وفى مقالة يوم ١٩٠١/٤/٣ فى جريدة اللواء يقول :

« اكبر داء من ادواء مصر تمسك أمرائها وعظمائها بالاجانب تمسكا يكاد يكون عبادة .. ومحال على شعب يقتدى بعظمائه ولايسير الا خلف كبرائه أن ينهض نهضة الشعوب ويبلغ مبلغها فى العلم والحضارة والحرية والاستقلال اذا كان هذا شأن عظمائه وحال أمرائه وكبرائه .. لقد أظهر عظماء مصر امتهم بمظهر جعلها أضحوكة وسخرية للناس بما فعلوه فى الاكتتاب لمشروع تخليد ذكرى اللادى كرومر » .

وبعد ذلك نراه يثير نخوتهم ، ويهيب بوطنيتهم وعزتهم أن تثأر لنفسها ، وتقضى على تلك المظاهر الضعيفة والنزعات الوضيعة ، التي تنزل الكبرياء الوطنى ويقول « عجبت أن تطلبوا الحرية بأعلى أصواتكم وكبراؤكم يحترمون الأوروبى ، فقوموا وأعلنوا على هذا الداء الأجنبى القتال » .

الوظائف الحكومية :

كانت الوظائف الحكومية في عهد الاحتلال من أشد الوسائل اضرارا بمصالح البلاد لان الاحتلال كان يرغب المثمين من الشباب فى الوظائف ؛ حتى ينفضوا عن خدمة وطنهم ويساعدون الاحتلال فى تنفيذ مظالمه ، وقد نتج عن ذلك حدوث التفرق بين الموظفين المنفذين لسياسه الاحتلال وبين الشعب الذى يجد فى تصرف الموظفين ما يتنافى مع الكرامة وما يعد مشينا ومسيئا للنفوس .

وخطب مصطفى كامل فى نخبة من الشباب فى ١٨٦٨/١/٨ « وانى أذكركم بما قلته لكم من قبل من ان الاستقلال نور من انوار الوفاق .. ولا شك انه لا يمكنكم بانارة الامه وارشادها حق الارشاد الا اذا كنتم عائشين في الحياة الحرة ، مجاهدين بأنفسكم فى سبيل الحياة لا عمالا في ادارة أو ديوان تنقدون فى آخر الشهر مرتبا معلوما يقتل فيكم عواطف الاستقلال ويحبس فى نفوسكم الحرية الشخصية والميل الى عظائم الأمور ، ثم ختم خطبته بالحث على الاتحاد فى خدمة الوطن .

تخليد العظماء :

دعا الى تمجيد وتخليد ذكرى العظماء والأفذاذ الذين خدموا مصر ، ويرى فى ذلك دليلا على حياة الأمة وقد كتب فى ١٠ مارس سنة ١٩٠١ يؤنب الأمة على اهمالها تخليد ذكرى فقيد المعارف على باشا مبارك الذى خدم العلم والأدب والوطن خدمة لا تنسى وقال فى ذلك « اللهم ان مصر لا تنال من السعادة نصيبها ، ولا تبلغ من الاستقلال مطلبها ، الا اذا جعل أساس تربية أبنائها تخليد

ذكر النافعين من رجالها وبث فى نفوس الناشئين الاقتداء بهم ومحبة الديار محبة العارف لجمالها ، المحيط بأسرار تاريخها ، الخبير بعلل تأخرها وادواء انحطاطها » .

نادى المدارس العليا :

ان الوعى الوطنى الذى أثاره مصطفى كامل فى جميع طبقات الأمة ، شمل مده السريع شباب المدارس العليا ، فانشأ لهم أول ناد رسمى فى البـــلاد ، وافتتح فى الخامس من ابريل ١٩٠٦ ، فى المبنى الذى كان قائمـا بشارع قصر النيل رقم ٤ وقـد شمل نشاطه النواحى الثقافية والاجتماعية وكان يوم افتتاحه عيدا قوميا ، حضره وزير المعارف ، ووكيل الوزارة ومحافظ العاصمة وكبار رجال الثقـافة والأدب فى البلاد وكان يتردد عليه قادة البلاد وكبار موظفيها ، وكان محلا لاختلاط رجال القانون والأطباء والمهندسين بالطلاب ، الأمر الذى أدى الى تفتح الأذهان واستنارة الطلبة فى كل ما يدور ببلادهم من شئون سياسية وأدبية وفكرية فكان النادى بمثابة ندوة سياسية تدرب وتخرج منها الرهط الـكبير من جنود الوطنية وطلائع التقدم والتطور فى كل ميدان .

بدأ التفكير فى انشـائه سنة ١٩٠٥ وتألفت لجنـة تأسيسية فى أكتـوبر من تلك السـنة برئاسة الدكتـور عبد العزيز نظمى ، لم يكن مصطفى كامل بعيدا عن ميلاد هذه الفكرة ، فكل الذين دعوا اليها وعملوا على تنفيذها من تلاميذه وأنصاره .

وقد جاء فى عدد اللواء الصادر فى ١٩/١٠/١٩٠٥ :

« نرى من أوجب الواجبات اعانة هذا النادى ، ممن

يقدرون العلم وذويه ، لذلك نود أن يقتفى الكبراء والعظماء والوجهاء أثر الذين جادت نفوسهم بما تبرعوا له حتى الآن وبقدر ما يتبرع الواحد لهذا النادى المحرومة منه هذه البلاد تعلم قيمة العلم عندنا كثرة وقلة . ونستنهض همم السراة لمد يد المعونة الى هذا النادى الذى سيكون محط رجال ابنائهم » .

واجتمعت الجمعية التاسيسية لهذا النادى لأول مرة فى يوم الجمعة ٨ ديسمبر ١٩٠٦ باحدى قاعات مدرسة الطب ، وتم فيها انتخاب مجلس ادارة النادى ، وكان الرئيس المنتخب هو عمر بك لطفى وكيل مدرسة الحقوق ورائد الحركة التعاونية فى مصر ، ومن أخلص أصدقاء مصطفى كامل . وضم مجلس الادارة اسماء لمعت فى مستقبل الحياة السياسية فى مصر ، فمن طلبة الحقوق لمع اسم محمد عبد الخالق ثروت الذى وصل الى منصب النائب العام والوزير ورئيس مجلس الوزراء ومن طلبة الطب الدكتور حافظ عفيفى باشا الذى بقى فترة كبيرة من انصار الحزب الوطنى الأوفياء ، والذى وصل فيما بعد الى منصب السفير والوزير ثم رئيس الديوان الملكى .

ومنذ انشاء النادى بدأ سريان روح جديدة فى جو الطلاب وصاحب ذلك روح الاعتزاز بمكانة المعاهد العليا ومقامها فى القيادة الفكرية للشباب وبعد أقل من سنة حدث أول اضراب من طلبة مدرسة الحقوق احتجاجا على القيود التى وضعتها وزارة المعارف لتهبط بمستوى هذه المدرسة ودعوا الى عقد اجتماع فى ١٩٠٦/٢/٢٦ بحديقة الأزبكية ، وبعد أن أعرب الطلاب عن سخطهم قرروا الاضراب ، وكان ذلك أول اضراب فى عهد الاحتلال ، وعلى اثر ذلك أغلقت المدرسة من ١٩٠٦/٢/٢٦

حتى السبت ١٩٠٦/٣/٣ . واتجه الطلاب بعد ذلك الى مقر جريدة اللواء فعرضوا مطـــالبهم وأذاعوا شكواهم فتلقاهم مصطفى كامل بترحيبه وتشجيعه وتأييده .

وقد كان نادى المدارس العليا البيئة الصـــالحة التى نمت فيها بذار كثير من المشروعات القومية بالبلاد مثل انشاء مدارس الشعب التى أنشأها الحـــزب الوطنى فى الأحياء الشعبية لتعليم العمال ومحو الأمية والتى تولى فيها أقطاب الفكر تعليم العمال من أمثال أحمد لطفى نقيب المحامين فيمـــا بعد والشيخ عبد العزيز جاويش ومحمد فريد (١) .

اما المشروع الثـــانى الذى خرج من نادى المدارس العليا فقد كان مشروع مراكز رعاية الطفل الذى كان من أول مشروعات الحركة الوطنية فى عهد مصطفى كامل وتبعه مشروع ملاجىء الأطفال اليتامى ثم مشروع التعاون ثم مشروع الهلال الأحمر . وهكذا فان لنادى المدارس العليا الفضل فى اخراج هذه المشروعات وبسط نور اشعاعها على الأمة .

دعوته فى سبيل التقدم الاقتصادى فى البلاد :

الصناعة : كانت الصناعة الأهلية فى عهده تكاد تكون فى حكم العدم ، وركدت الصناعات التى أدخلها محمد على وخمدت النهضة الصناعية فى البلاد ، ورأى الانجليز أن من مصلحتهم قتل الصناعة الوطنية .

ولم تفكر الحكومة فى انشاء المصانع حتى لا تتعارض

(١) كتاب مصطفى كامل لفتحى رضوان

مصلحة البلاد الوطنية مع مصلحة الاحتلال الذى يرغب فى أن تكون البلاد سوقا رائجة لمصنوعاته وبضاعته .

كما وكان ينقص البلاد المدارس الصناعية الفنية لتمد البلاد بالصناع الفنيين فى شتى الفنون والصناعات ولكن حكومة الاحتلال لم ترض بانشاء مدارس صناعية حتى لا ينافس الصناع الوطنيون الصناع الأجانب الذين احتكروا الأعمال الفنية والصناعية بالبلاد .

وقال فى ذلك مصطفى كامل (١) :

« فمن لم يبك على الأيام الخالية ، أيام كان المصرى غنيا بمصنوعات بلاده عن كل واردات الغرب ومصنوعاته، أيام كنا أقوياء بالسيف ، أقوياء في البحر ، أقوياء بالعلم، أقوياء بالتجارة والصناعة والزراعة ، ومن لم يعجب من جماعة يقولون لنا كلما أشرقت الشمس أننا سائرون الى الأمام وأن هذه الديار لم تبلغ من العظمة والقوة والتقدم والارتقاء ما بلغته فى عهد الاحتلال البريطانى ... أين تلك المدارس الزاهرة العامرة التى كانت تخرج فحولا فى الصناعة بكل أنواعها ، وأين تلك المعامل الواسعة التى كانت تقوم بكل حاجات البلاد وتشرف المصرى أمام الأمم . ذهبت تلك الأيام وتولت معها آيات مجدها وعلاها ولم يبق لنجاة مصر الا همم أبنائها وسواعد بنيها ، فان هبوا داعين للحياة ، عاملين بالدعوة ، ونهضوا نهضة الأحياء ، رأوا بعين رءوسهم مصر فى بهجتها السابقة وعزها القديم . وان أهملوا الشئون واعتمدوا على المقادير . وألقوا حبل البلاد على غاربها ، ماتوا كما ماتت أمم غيرهم من قبل ولم يجدوا من يقول على مقابرهم

(١) مصطفى كامل فى أربعة وثلاثين ربيعا — على فهمى كامل

رحمهم الله لقد كانوا رجالا » .

ولقد أتت دعوته ثمارها اذ قامت جمعية العروى الوثقى تدبر الوثوب الى تحقيق مشروع من أجل المشروعات الوطنية وهو انشاء مدرسة صناعية بالاسكندرية وقد احتفل بانشاءها احتفالا كبيرا .

ولما راى مصطفى كامل بوادر نهضة صناعية فى البلاد ، وان الانجليز يتربصون الدوائر بهذه النهضة ويصدر المستر غورست المستشار المالى توصيات لمحاربة الصناعة الوطنية فى مهدها جاء فيها :

« حيث ان البلاد بدات تدخل فى دور صناعى يستحق الانتباه ، سيما وقد تأسست شركة غرضها أن تبتاع القطن وتنسجه فى مصر بدون احتياج الى ارساله الى الخارج ، فالواجب على الحكومة تلقاء ذلك أن لا تهمل فى وضع الرسوم على المنسوجات التى تصنعها الشركة ، حتى لا تزاحم المنسوجات الأجنبية لأن صناعة كهذه لا يستحيل عليها أن تزاحم الأجانب . فاذاساعدتهاالحكومة وأعفتها من الرسوم خسرت مبلغا عظيما تأتيها به الجمارك ولم تعرف ان كانت الشركة تستطيع أن ترده لها أولا) ونفذت الحكومة هذه التوصية بحذافيرها . وكتب رحمه الله فى اللواء بتاريخ ١٥/١١/١٩٠٠ .

« لقد صفعت الحكومة الاحتلالية الصناعة الأهلية صفعة قوية فى الوقت الذى تحتاج فيه الىالرعايةوالعنايةلنشأتها .. وهل يعقل أن صناعة النسيج فى مصر وهى صناعة ناشئة فى مهد الطفولة تجارى وتقاوم الصناعة الأجنبية التى بلغت أدوار القوة ، اللهم ، الا اذا ساعدتها الحكومة بيدها الشديدة ، وظلت تحميها وتشد أزرها . وها هي

الحكومة لم يكفها أن تتخلف عن المساعدة . حتى كانت هى نفسها مع الأجانب ضد الوطنيين ، فكيف يمكن لأى صناعة أخرى أن تحيا وتنتشر فى مصر ... يقول المستشار أن وضع الرسوم على المصنوعات المصرية ضرورى لفائدة البلاد ، واذا لم تعمل ذلك خسرت خسارة كبيرة تأخذها من الصناعات الأجنبية فهل غاب عنه أن البلاد بلاد الأهالى ، وأن الحكومة حكومة الأهالى ... هل غاب عنه أن حماية الصناعة الأهلية فى مبدأ أمرها أمر ضرورى للغاية ، وأن فائدتها فيما بعد لا تقدر بمال ، وأن ازدهار الصناعة هو ثروة عظيمة اقتصادية ولكنه يريد عدم اعفاء الصناعة المصرية من الرسوم خوفا من مزاحمتها لمصنوعات بلاده ورواج مصانع ليفربول ومنشستر وهكذا يجنى الانجليز على الأمة المصرية ويدعون أنهم ناصحون ..

آراؤه فى الاصلاح الزراعى :

كان مصطفى كامل يرى أن لا سبيل الى رقى الزراعة وتقدمها بالبلاد ، الا بعد ترقية الفلاح المصرى ورفع مستواه ثقافيا وصحيا واقتصاديا ونستطيع تلخيص ما جاء فى آرائه عن الفلاح فيما يلى :

١ ــ يحتاج الفلاح المصرى الى الارشاد الزراعى حتى يستطيع أن يستفيد بزراعة أرضه على الأسس السليمة، وتطوير الأساليب الزراعية البدائية التى كانت تستعمل فى ذلك الوقت فى البذر والحصاد والتسويق وتعليم الفلاح وتدريبه على الصناعات الزراعية .

٢ ــ عدم عناية الحكومة بأحوال الفلاح ، راجع الى سياسة الاحتلال فى عدم تحسين أحوال البلاد الزراعية .

٣ ـ يجب القضاء على الأمية بين الفـلاحين ، وتعليم الفلاح اجادة القراءة والـكتابة والحساب وعلم تخطيط البلدان ومبادىء الصحة والزراعة فى كتاتيب تصنعهـا لهذا الغرض ، واتاحة الفرصة له للتزود ببعض المعلومات الاقتصادية والاجتماعية الضرورية . .

٤ ـ يجب تحسين أحوال المواصلات ، وتعميم السكك الحديدية فى كل مكان بأرض الوطن ، لامكان تسـويق المحصولات بأجور معتدلة بدلا من تحمـل الفـــلاح فى ذلك الوقت المتاعب الجمة والتكاليف الفادحة فى نقل محاصيله الى مكان تسويقها .

٥ ـ تخفيض الضرائب الثقيلة المفروضة على الأطيان .

٦ ـ خطر الاعتماد على مصدر واحد للثروة فى مصر وهو الزراعة وكان يرى رحمه الله انه يجب عدم الاتكال الـكلى على الزراعة ، ويجب الاهتمام بالصناعة ونشرها حتى ترتقى بذلك التجارة ولو بمقدار حاجة ســكان البلاد وما جاورها من الأمم الغربية والافريقية كما ان زيادة عدد السكان فى المستقبل يجعل من الصعب توفر الموارد الكفيلة لمعيشتهم فى الظروف الملائمة ما لم تتوسع البلاد فى النشاط الاقتصادى .

نساء فى حياته :

تأثرت حياة مصطفى كامل وجهاده بامرأتين عظيمتين الأولى والدته السيدة حفيظة ، وكانت كريمـة المرحوم اليوزباشي محمـد أفنـدى فهمى وكانت من خيرة نساء عصرها ، أخلاقا ونهجا ومناقب ، من شارع الكومى بحى السيدة زينب بالقاهرة ، ورث عنها مصطفى كامل اندي

الشمائل ، وكان يحبها حبا جما ، وانطبعت فيه أخلاقها من صفاء النفس وحب الخير والصبر والثبات ، وقد أنجبت هذه السيدة الفاضلة من الأبناء غير مصطفى كامل المرحومين على بك كامل فهمى ، السيدة عائشة ، السيدة نفيسة ، الأستاذ حسن حسنى كامل .

مرضت بأمراض مستعصية فى أواخر حياتها فتحملت آلام المرض صابرة شاكرة ، وبهدوء وايمان عانت شدة الداء وقسوته ، وظلت كذلك حتى أسلمت الروح سنة ١٩٠٧ ، وكان طيلة مرضها مشغول الفؤاد ، شديد العناية بأمرها ، كتب مصطفى كامل الى مدام جولييت آدم حين وفاتها يقول :

« قد رزئت أكبر رزء في الحياة ، فان والدتى العزيزة مالكة فؤادى قد فارقت الدنيا يوم الأحد الماضى (١٩٠٧/٥/١٢) أن حزنى لشديد وحياتى كادت تنقضى » .

فهذا التعبير يدل على مبلغ وفائه لوالدته وحبه لها ، وحزنه هذا لعمرى ابلغ مظهر لوفاء الانسان فى هذه الدنيا .

وقد بنى لها مقبرة فى الامام الشافعى وأودع فيها جثمانها الطاهر وكان موت أمه الحبيبة اليه النذير بأفول كوكبه الى الأبد ، فلم يلبث بعدها بضع شهور يعانى داءه العضال ، الذى أعيا نطس الأطباء ، حتى أزفت الساعة لتنطلق روحه الى عالم الخلود للحاق بها فى العاشر من فبراير سنة ١٩٠٨ .

أما المرأة الثانية التى تأثر بها مصطفى كامل هى جولييت آدم وقد عدها أمه الروحية .

ولدت في اكتوبر سنة ١٨٣٦ بقرية فزيرى من اقليم بيكاردى من أقاليم فرنسا والدها الدكتور لميير الجراح الشهير ، كان من أعاظم رجال الطب ، بذل ماله وأنفق وقته في سبيل الأعمال الانسانية أما والدتها فهي من سلالة القائد سنيرين الذي ذاع صيته في حروب لويس الرابع عشر ، أتمت دروسها في كلية الآداب بباريس وتزوجت المحامي الكبير مسيو « دي لاماش » وهي في السابعة عشر من عمرها ورزقت منه مولودة هي «أليس دي لاماش» ولما مات زوجها تزوجت في سنة ١٨٦٨ بالمسيو أدمون آدم من زعماء الحزب الجمهوري في فرنسا فظهرت بزواجه ظهورا كبيرا ، لأنه كان عمدة باريس ومن اشهر ثراتها ، وقد تقلد كثيرا من المناصب الحكومية الكبيرة ثم انتخب عضوا دائما بمجلس الشيوخ بعد تأسيس الجمهورية الثالثة ثم صار رئيسا للمجلس وقد توفى سنة ١٨٧٧ ولم تتزوج من بعده وعكفت على الاشتغال بالسياسة والتأليف .

وقد تزوجت ابنتها من زوجها الأول بالدكتور سيمون الجراح المشهور ورزقت منه بثلاث بنات الأولى بولين وتزوجت بالمسيو جوديير رئيس تحقيق الشخصية بادارة بوليس باريس والثانية كلود تزوجت بالدكتور فورنو المدير الفنى لمعامل باستير والثالثة جوليت تزوجت بالضابط ماديبه .

وقد ظهرت في عالم الأدب والصحافة والسياسة نجما لامعا ، وقلما ساطعا مشهورا ، فكانت من أعظم شخصيات فرنسا في عالم الوطنية والسياسة والأدب وكان مشاهير الرجال من نواحي الارض يرحلون اليها فكانت دارها كعبة القصاد ومنتدى رجال العلم والأدب والشعر والسياسة .

ماتت عام ١٩٣٦ اى انها عمرت مائة عام وهى من أعظم من أنجبتهم فرنسا علما وأدبا ووطنية ومكانة سامية ، وظلت موضع احترام مواطنيها طول سنى حياتها وقد وضعت سنه ١٩٢٣ كتابا قيما عن مصر أسمته (انجلترا فى مصر) وهو من خير ما ألف فى المسألة المصرية .

أثرها الأدبى :

حينما برزت جولييت آدم فى ميدان الفكر والكتابة والسياسة لم يكن فى فرنسا سوى ثلاث كاتبات مشهورات وهن : (دانيل شيرن ، جورج ساند ، جيرأردن) وكان لكل منهن امتياز ادبى فى ضرب خاص من ضروب الادب ، اما جولييت ادم فكتبت فى علوم الأدب والاجتماع والتاريخ كما كتبت فى الوطنية والسياحة والفلسفة والسياسة .

وكانت فى كل ما كتبته مثال العقل الراجح والذكاء المتألق والوطنية الصادقة ومن أهم مؤلفاتها « ضد آراء بوردون سنة ١٨٥٦ ، جلال الزواج فى قوة الوفاء سنة ١٨٥٨ – أسرار جاريبالدى سنة ١٨٥٨ ، قريتى العزيزة ١٨٥٨ ، ومن كتبها الوطنية وطنيتنا سنة ١٨٦٧ ، الدفاع عن الوطنية سنة ١٨٦٩ والحرب السبعينيه ، حصار باريس ومن كتبها ما طبع اكثر من ١٥٠ مرة مثل كتاب (صداقتنا قبل ترك الثأر) وهو كتاب كتبته بعد فشل فرنسا ازاء المانيا بعد الحرب السبعينية وخسرت فيها مقاطعتين هما الالزاس واللورين ثم أنشأت سنة ١٨٧٩ المجلة الحديثة وهى مجلة نصف شهرية تصدر فى باريس وظلت هذه

المجلة حتى عام ١٨٩٩ ثم نزلت عنها لجماعة من أبنائها الأدباء واكتفت باصدار نشرة فى كل شهر جعلت عنوانها (الكلمة الفرنسية فى الخارج) وقد كان لهذه النشرة تأثير كبير فى الدوائر السياسية وقد استمرت هذه النشرة حتى ١٩٠٥ ثم أوقفتها وتفرغت لكتابة مذكراتها الخاصة بعد أن بلغت السبعين من عمرها .

وما أن اشتعلت الحرب العالمية الأولى حتى اهتمت بمشروعات اجتماعية هامة كتشجيع المحاربين وادارة الجماعات النسائية والتوفيق بين كبار الساسة والتمكين للوحدة العامة .

ولم يقتصر نشاطها على الصحافة والتأليف بل قامت برئاسة عدة جمعيات اجتماعية كبيرة فى فرنسا مثل جماعة الآداب النسائية ، السكك الحديدية الجنوبية ، يتيمات الحرب ، ممرضات المدافعين عن الوطن ، كما كانت دائمة العطف على البائسين والبائسات وعلى تشجيع الأعمال الخيرية .

زارت مدام جولييت آدم جميع بلاد العالم بدعوات رسمية من أحزابها الوطنية وجماعاتها الأدبية ما عدا انجلترا والمانيا فانها لم تزرهالعدم رضائها عن الاتجاهات السياسية بحكومة كل منها . لقيت فى المجر والبرتغال واليونان وروسيا قبل الثورة الشيوعية اكراما لم يبلغه أحد من الأدباء من قبل ، فاحتفل بها القياصرة والملوك والملكات وقادة الرأى والعلماء فى كل بلد رحلت اليه ، وقدمت لها أنفس الهدايا تقديرا لمكانتها الأدبية العالمية .

وتعتبر مدام جولييت آدم الأم الروحية لمصطفى كامل منذ تعرف بها واتخذ باريس مركزا لخدمة القضية

المصرية بأوروبا فى ١٨٩٥/٩/٢١ وقد يسرت له كل سبيل من سبل الدعاية ، وفتحت له ابواب مجلتها القيمة سنة ١٨٩٥ فدبج فيها المقالات الوطنية التى لفتت انظار العالم السياسى فى كل بلد متحضر الى قضية مصر وحقوق أمة وادى النيل .

ودعاها لزيارة مصر فزارتها سنة ١٩٠٤ حيث استقبلتها الأمة المصرية استقبال عرفان بالجميل ، واهدتها الهدايا العديدة ، كما استقبلتها الجهات الرسمية أحسن استقبال ومكثت فى مصر ثلاثة شهور ، زارت فى خلالها كل مكان ، باحثة منقبة ، وعلى الأخص الأماكن الأثرية بالوجه القبلى ، وكان فى صحبتها مصطفى كامل والأمير حيدر فاضل وفى كل مكان زارته استقبلت من المواطنين بكل حفاوة وتكريم .

وكتب مصطفى كامل حين زيارتها فى ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤ مقالا جاء فيه :

« لم يرتفع مقام للعلم والأدب والفضل فى عصر من العصور كارتفاعه فى هذا الزمان ، فقد أصبح النوع البشرى يعتبر أرباب الأقلام وقادة الفكر فى مصاف الملوك والأمراء .

لقد زارت مصر فى هذه الأيام أميرة من اكبر اميرات الرأى والقلم والسياسة ، هى مدام جولييت آدم الكاتبة الفرنسية الطائرة الصيت ، زارت مصر وقد عشقتها من قديم وشغفت بها من عهد شبابها ، ودافعت عنها بقلمها السيال السنوات الطوال فلذلك حق لمصر أن ترحب بهـا وللمصريين أن يلقوها بالشكر والاعظام .

أتمت ضيفتنا العزيزة فى شهر أكتوبر الماضى العام

السابع والستين من عمرها المديد ، ومضى عليها خمسون عاما وهى الكوكب الساطع فى سماء الأدب الرائع ونشرت الى اليوم اثنين وثلاثين مؤلفا من أرقى المؤلفات واسماها.

يسمع الانسان بمشاهير الكتاب وأساطين الحكمة والسياسة فيشتاق لرؤيتهم ، حتى اذا اجتمع بهم ، وجد بعضهم دون سمعته وشهرته فى حديثه ومقابلته ، اما لترفعه عن الناس أو لحبه العزلة والانفراد ، ولكنك اذا لقيت الكاتبة البليغة ، وجدت ملكة جمعت الأدب الباهر واللطف العطر والعلم الواسع ، والبيان التام والرأى الثاقب.

نعم منحها الخالق كل ما يرجوه الانسان فى حياته مالا وجلالا وأدبا ، وسمعة طائرة ونفوذا كبيرا وقد استخدمت كل هذه المواهب فى خدمة وطنها فهو قبلتها وفى سبيله تضحى بكل مرتخص وغال .. الى أن قال عن صالونها السياسى :

« كان لضيفتنا الكريمة الدور الهام فى تأسيس الجمهورية الفرنسية وفى التحالف الفرنسى الروسى وكم تقررت امور خطيرة فى دارها لان كبار الجمهوريين وفى مقدمتهم « غمبيتا » كانوا يسترشدون بأفكارها ويعترفون برأيها الصائب . أحبت مدام جولييت بلادها .. فأحبت كل محب لبلاده ، وعرفت الوطنية الراقية عند كل وطنى ، ولذلك نجد اسمها محبوبا عند الأمم الناشئة المحتاجة الى المرشد والمعين .. نجد دارها فى باريس مزدحمة بالقصاد من انحاء العالم ، كلهم يطلبون منهـا الارشاد ويقدمون لها فرائض الشكر والاعجاب .

اعتقدت ان الحق قاهر مما قهر فى بادىء الأمر ، وأنه ذو الكلمة الأخيرة فى كل قضية فابعدت القنوط عن

نفسها وعمن حولها ، وكم سمعتها تبث الآمال فى قلوب محبيها الكثار بأقوالها الصادقة ، وعباراتها المؤثرة ، فمثل هذه الضيفة العزيزة من تكرم الدنيا ويعز بنو الانسان ، واذا كان أكبر صفات المصريين اكرام الضيف وعدم نسيان المعروف فلا بدع اذا رأيناهم يتسابقون لاكرامها واعلان شكرهم لها على حبها لبلادهم ودفاعها عنهم ، وهم بهذه المظاهرات الودية يثبتون أنها لم تخطىء فى قولها واعتقادها فى عظمة المصريين وانهم سيبهرون العالم بحياتهم ومستقبلهم فى القريب العاجل » .

وقد أولم الخديو عباس لمدام آدم وليمة عشاء فاخرة فى قصر القبة مساء ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤ حضرها صفوة من الأمراء والكبراء وذهبت صحبة مدام يونج ومصطفى كامل باشا وحسين واصف باشا الى بور سعيد فأقيمت لها حفلة فخمة فى المدرسة الواصفية خطب فيها مصطفى كامل خطبة شيقة ، وكان المجتمعون يبلغون عدة آلاف جاءوا تكريما لضيفة مصطفى كامل .

ومن ثنايا عبارات رسائله التى بعث بها الى الصحف الفرنسية الشهيرة ، يتضح لنا مدى العمق الروحى للعلاقات التى كانت بينهما فقد كتب اليها من مارسيليا فى يناير سنة ١٨٩٦ :

« قبل أن أبرح هذه الأرض العزيزة أرض فرنسا .. أعرب لك من صميم فؤادى عن جزيل الثناء على المساعدات القيمة جدا .. تلك المساعدة التى أوليتنى اياها .. لأنه واجب مفروض الأداء أن أشكر بكل اخلاص انعطافك العظيم الى وطنى والى شخصى المتواضع » .

وكتب اليها من فيينا فى ٢٠ مارس سنة ١٨٩٧ :

« ليس لدى وقت يسمح لى أن أحادثك فى حالة وطنى العزيز ، ان الانجليز يعماون فى وادى النيل كل ما يريدون ويرتكبون أفظع الجرائم على الانسانية والعدالة ويسخرون أكبر ســـخرية من أوروبا وعلى الأخص ـ وا أسفاه ـ من فرنسا ، لأن خطة فرنسا فى هــذه الأزمات الأخيرة قد دفعت بلا جدال الانجليز الى الحاق أشد المظالم بها ـ والذى زاد الطين بلة أن هذه الخطة قد أضعفت عزيمة أشد الناس حبا لبلادكم الجميلة .

وكتب اليها من بودابست فى ٢٨ مارس سنة ١٨٩٧ :

« لقد أصبت ألف مرة فيما كتبته مما هو راسخ فى نفسى من أن الوطنية وحدها قادرة على أن تكتسح بتيارها الجارف كل المخاوف .. أننى ما اعتقدت فى وقت ما غير ذلك وهو ما لابد قد لاحظته فى كل أعمالى ، فاننى ما يئست أبدا من مستقبل وطنى ولا من النصر الذى سيكون خاتمة مسألتنا . لا سيما ان الوطنيين المصريين متحدون الآن ، ولنا حزب سرى مخلص للغاية وهو على استعداد لتضحية دائمة فى سبيل الوطن المقدس ... واننى مع هذا العمل .. مع هذه الوطنية الدافقة مع هذا الزهد الى آخر ما تعهدينه فى ، مما هو أول واجب على لأشك أصلا فى أنه سيأتى يوم يسمع فيه ندائى ، اذ تتحقق آمالى .. ولعلك ترين أننى أجمع حول مسألتنا من العواطف ما يصل اليه جهدى ، فاننى أنشر الحقيقة فى كل مكان .. وفى جميع الأنحاء أجعل أعداء الاحتلال أكثر مما كانوا .. فان مركزنا يشبه من جميع الوجوه مركز رجل فى داره لص يسرق ويحرق ما يجده فى طريقه ويذبح كل شىء . فواجب صاحب الدار التعس أن يصيح

برجال الشرطة ويستفيث بكل انسان .. فنحن كذلك نستفيث بالجميع ولا نود أبدا أن تشترك امة حرة من أمم أوروبا أو غيرها مع انجلترا ضدنا وتعمل على خسارتنا .. رأيت القوم في النمسا قد ابتدأوا يدركون ان الانجليز كانوا يستغفلونهم زمنا طويلا وانه يجب عليهم أن يعملوا ولو قليلا متى وافقت أعمالهم مصالحهم .

رسالة من القاهرة تنادينى وتدعونى الى العودة على جناح السرعة .. ان الانجليز يحرضون اليونانيين القاطنين بمصر على أن يثوروا ضد الوطنيين وأن يوجدوا في ذلك اضطرابات يستفيد منها الاحتلال » .

ومن الاسكندرية كتب اليها فى ١٢ يونيو سنة ١٨٩٧ رسالة جاء فيها :

« لابد أن تكون تلغرافات هافاس قد انبأتك بهذه المظاهرة الأهلية الكبرى التى كانت يوم الثلاثاء الماضى ، والتى ما كنت أنتظر وقوعها من مواطنى لعظم جلالها ذلك انه لم تكد تعلن الصحف عن الخطبـــه التى ألقيتها حتى تقاطرت الوفود من شتى أنحاء الأقاليم .. وقد وافقوا جميعا بكل سرور — وهم محقون فى هذه الموافقة — على ما عرضته عليهم أخيرا فى عدم الرضا بالاحتلال وطلب الجلاء ، وأن الأوروبيين حتى اليونانيين منهم مرتاحون الى تلك المظاهرة وهذا القرار » .

انشاء مدرسة وجريدة :

واذا كانت الحكومة مهملة فان الأمة قد ابتدأت تعليم نفسها بنفسها فان المدارس الأهلية التى انشئت فى العام الماضى قد نجحت نجاحا عظيمـــا . وفى مدرستى اليوم ٢٦٥

تلميذا كلهم من سلالة مصرية وعلى أتم ذكاء ، وأننا نبث فيهم الشعور الوطنى بأكمل معانيه .. قدعزمت كماتشرفت بأنبائك من قبل على اصدار جريدة كبرى يوميه لأستعين بها على خدمة أفكارى واحقق رغائبى وسيكون اسمها (اللواء) ولذلك أرجو منك أن تتفضلى بارسال مقالة كتحية منك .. أنت الصديقة الجليلة (للواء) الوطنية المصرية وتزفين اليها نصائح الوطنية الصحيحة فان ذلك يؤثر كثيرا واننى أثنى عليك كثيرا اذا تفضلت بارشادى الى المؤلفات الخاصة بالتاريخ الوطنى — والقصص الوطنية عن كل البلاد ، لألقن الشعب اياها فانه يلزمنى ضرب الأمثال » .

وكتب اليها فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٩٩ :

« اننى أعمل كثيرا وأملى أن يصير اللواء أول جريدة فى الشرق ، فانى أريد أن يكون فى وقت واحد عاملا للوطنية المصرية وواسطة بين العالم الأوروبى والعالم الأوروبى ، ولهذا رجوت منك أن تكتبى لنا بين آن وآخر ، مواعيظ وطنية مما جرى فى أيامك أو فى سطور التاريخ ، وان تسألى كل أصدقائك أن يعتبروا جريدتى جريدتهم .. وان المصريين جميعا مرتاحون الى قيامى باصدار جريدة أهلية الصبغة وطنية المشرب .

ويعتذر لها فى رسالة بعث بها فى ٢٦ مايو سنة ١٩٠٠، عن تأخيره فى الكتابة اليها ويتحدث عن تأثير جريدة اللواء فى الرأى العام العربى فيقول (.. لأننى كنت مشغول جدا باللواء الذى نجح نجاحا فائقا وصار بعد أربعة شهور أكثر الجرائد تأثيرا فى العالم الاسلامى ..) .

وكتب اليها من تريستا فى ٢ يوليو سنة ١٩٠٠ يقول :

لقد حظيت بمطالعة كتابك القيم (الوطن المجرى) على ظهر الباخرة وشد ما حرك أشجانى عندما قرأته .. وهل يسمح لى الزمان بأن اقرأ يوما ما مؤلفا من قلمك عن « الوطن المصرى » انك سبقت فوعدت بذلك . وما وعدت به واجب الانجاز . اننى لا أجد كلمات تسع اعرابى لك عن استيائى من أوروبا والمدنية والانسانية التى قضت بهجر البوير البواسل البائسين !!

والى القارىء الكريم نموذج من خطابات السيدة العظيمة الى الزعيم الشاب. كتب له فى ١٩٠٠/١/١ هذا الخطاب :

صديقى الشاب

اسمح لى أن أعرب لك عن الدعوات الصادقة التى أرفعها الى السماء ليهبك الله من لدنه صحة ومجدا وقوة فى جهادك الشريف ضد أعداء بلادى وانى منشرحة الصدر جدا لما علمت من انك ستنشىء جريدة سياسية « اللواء » لأن ذخائر الخطابة والصحافة لازمة لكل المجاهدين فى السياسة .

وانى أهنئك أصدق التهنئة على نجاحك الخطابى ، ولست بحاجة لأن أعرفك رأيى فى أعمالك الوطنية فأنت عالم بها علم اليقين ولو استطعت أن أشرح لك افكارى بشأن بلادك لوجدت فيها ما يملأ الفؤاد أملا وثقة

وانكم معاشر المصريين لو أردتم أن تكون مصر أكبر الأمم وأعظمها لكانت كما تشاءون .

ألف تحية وألف سلام « للواء الرسول وليكن لواؤك » أول عامل للتقريب بين أبناء الدين المحمدى الصحيح وأبناء الدين المسيحى الصحيح وما ذلك بعسير ، وان

هذا التقريب يكون أكبر خطوة فى تاريخ الانسانية والتمدن .

جولييت آدم

اثر مدام جولييت آدم فى مصطفى كامل

١ ـ كان تعضيدها له وتأييدها لجهاده ، بمثابة قوة دافعة على الجهاد وتشجيع معنوى طويل ساعده ليمضي في جهاده ، لا تثنيه العقبات ولا توقفه الأحداث ولا يضعفه تخلى الكثير من المصريين عن معاونته بل معارضتهم السافرة وتسفيههم لمبادئه .

وفى صالونها المشهور تم الاتفاق على الخطة التى عرفت تفاصيلها فيما بعد بحادثة فاشودة ودفعت الحكومة الفرنسية بايحاء مدام جولييت آدم على تنفيذها لمساعدة المصريين فى التخلص من الاحتلال البريطانى وهى حادثة مثيرة جدا اهتزت لها أوروبا بأسرها وكادت أن تؤدى الى الحرب بين فرنسا وانجلترا .

٢ ـ عرفته بكبار الساسة فى أوروبا وكبار المحررين فى فرنسا ، مما مكنه أن ينشر مقالاته السياسية الشهيرة ، للتنديد بسياسة انجلترا فى مصر فى أمهات الصحف العالمية مثل الفيجارو ، وقد نجح مصطفى كامل فى استغلال هذه الامكانيات ، فى حملته ضد انجلترا على اثر الأحكام الجائرة التى وقعتها على ابرياء دنشواى ، مما أثار الرأى العام العالمى ضد انجلترا وأثار كثيرا من ذوى الرأى الحر فى انجلترا ضد سياسة حكومتهم فى مصر ، وكان من نتيجة ذلك عزل اللورد كرومر .

٣ ـ بما لها من خبرة فى الشئون السياسية ، اطلعته

على حيل الاستعمار ومؤامراته ، وانضمت له علانية ، وكتبت فى الصحف ، وخطبت فى المحافل السياسية ، وعقدت المؤتمرات والاجتماعات فى باريس ، فى سبيل ايجاد رأى عام فى فرنسا وفى أوروبا ، يدعو الى ضرورة جلاء انجلترا عن مصر . ويدحض مفتريات الاستعمار ، ويفند مزاعمه المغرضة لتبرير وجوده فى مصر .

حادثة فاشودة

عهدت فرنسا سنة ١٨٩٦ الى الكابتن مرشان ، وكان من أصدقاء مدام جولييت آدم بالزحف على فاشودة الواقعة على النيل واحتلالها ، وقد اختارت هذه النقطة بالذات لأهميتها من الوجهة الحربية والجغرافية ، وهى تقع فى أعالى النيل جنوب السودان . فسار على رأس كتيبة من الجنود مؤلفة من تسعة ضباط فرنسيين ومائة وعشرين جنديا من أهالى السنغال ، وقضى عامين فى طريقه اليها ، ووصلها فى ١٨٩٨/٧/١٠ ، وكان احتلالها ايذانا بفتح باب المسألة المصرية ، وكان المقرر أن فرنسا سترد على انجلترا اذا احتجت عليها ، انه لن يتم جلاء فرنسا على فاشودة الا اذا تم جلاء انجلترا عن مصر ، فأدركت انجلترا غرض فرنسا من هذه الحملة، فاعترضت باسمها على هذه الحملة واحتجت عليها باعتبار أن فاشودة بلدا مصريا ، وسار اليها اللورد كتشنر سردار الجيش المصرى وقتئذ ، على رأس قوة مؤلفة من ١٨٠٠ جندى مصرى ومائة جندى بريطانى ، فوصلها فى سبتمبر سنة ١٨٩٨ ، وهناك التقى بالكابتن مارشان واحتج باسم الخديو على احتلال بلد مصرى ورفعه العلم الفرنسى

عليه ، وأبلغه ان الاحتلال انتهاك لحقـوق مصر ، وانه جاء لرفع العلم المصرى على فاشودة ، وكان ما رشان يعلم أن لا قبل له بمقاومة القوة المصرية التىجاءتلاجلائه عنها اذ لم يكن لديه القوة الكافية للمقاومة ـ فأذعن ولم يقاوم ، ورفع المصريون عليها العلم المصرى .

واشتدت الأزمة السياسية بين انجلترا وفرنسا على اثر هذه الحادثة وكأن الظن أن تتمسك فرنسا بموقفها وتفتح باب المسألة المصرية فتضطر انجلترا الى الجلاء عن مصر مقابل جلاء الفرنسيين عن فاشودة ، وقد تفـاءل المصريون لهذه الحادثة وظنوا أن آمالهم فى الجلاء سوف تتحقق ، اذ كانوا يعتقدون ان فرنسا لا تقدم على هذا التحدى لانجلترا الا وهى مصرة على المضى فى سياستها الى النهاية وكاد الخلاف يصل بين الدولتين الى امتشاق الحسام بينهما ، فعظم بذلك شأن المسألة المصرية وقويت آمال المصريين فى الاستقلال ولكن فرنسـا تخاذلت وتراجعت آخر الأمر .

وخشيت مغبة الحرب اذا لم تتقدم حليفتها الروسيا لمعاونتها فسلمت بوجهة نظـر انجلترا وأمرت مارشان بالجلاء عن فاشودة وتم جلاؤه عنهـا يوم ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٨ فـكان هـذا التسليم أكبر صدمة سياسية أصابت الحركة الوطنية وزلزل هذا الحادث أمل المصريين فى الاستقلال . وكتب مصطفى كامل فى هـذه المناسبة الى أخيه على بك وكان وقتئذ من ضباط حملة السودان . كتابا يظهر شعوره ويعلن ثباته على مبادئه :

« .. ان الأحوال السياسية سيئة للغاية بعد مسألة فاشودة » ، وقد أظهر بعض الكبراء الجبن وكادوا يخونون

بلادا أحسنت اليهم بما لا يحلم به غيرهم ، ولكنى ثابت على خطتى حتى الممات ، لأن اعتقادى ان ثمر الدفاع وان لم يجنه المدافع الأول أو الثانى فلسوف يجنيه مصرى على مدى الأيام ، واننا اذا لم نقتطف ثمر عملنا وجهادنا في حياتنا فاننا على الأقل نضع الحجر الأول لمن يبنى بعدنا » وكتبت مدام جولييت آدم فى مقـــالة لها فى فبراير سنة ١٩٠٤ عن أغلاط السياسة الفرنسية :

« فاشودة انها الضربة القاضية !! لقد قلت فى رسائلى السابقة أن كثيرين من ساسة فرنسا قد أفهموا الخديو والوطنيين المصريين أن فرنسا ستتدخل لصـالح مصر سريعا ، فصاروا جميعا يعتقدون أن تحرير وطننا سيأتى من الســودان ، ولـكن حادثة فاشودة قضت على آمال المصريين جميعا » .

وقد كان لهذا الحادث تأثير كبير فى موقف الخديو ، فاستسلم بعدها للأمر الواقع وأخذ يتودد الى الاحتلال، وليس أدل على ذلك من زيارته بعد ذلك للندن سنة ١٩٠٠. وفى ذلك يقول مصطفى كامل فى رسالة له بعثها الى مدام جولييت آدم فى ١٩٠٠/٦/٢٢ .

« أبعث اليك مع هذا بمقالة تفصح لك عن شعورى والشعور الأهلى نحو سياحة الخديو فى لندن ، تلك السياحة التى آلمتنا كثيرا وما ذلك وا أسفاه الا نتيجة فاشودة » .

الاتفاق الودى
بين فرنسا وانجلترا

٨ ابريل سنة ١٩٠٤

وقع فى سنة ١٩٠٤ حادث سياسى خطير كان له أسوأ الأثر فى كفاح مصطفى كامل وكان بمثابة صدمة شديدة للحركة الوطنية ، التى كانت تعتمد على تأييد فرنسا فى مطالبة انجلترا بالجلاء ، ونعنى به العهد المعروف « بالاتفاق الودى » المبرم بين فرنسا وانجلترا فى ٨ ابريل سنة ١٩٠٤ .

كانت العلاقات بين الدولتين تزداد جفاء على أثر انسحاب فرنسا من فاشودة ، فرأى بعض رجال السياسة فى كلتا الدولتين السعى فى ازالة أوجه الخلاف بينهما ، لكى تقاوما نفوذ ألمانيا فى أوروبا ، والذى كان يهدد مصالح الدولتين ، لذلك أخذت الحكومتان فى تسوية المسائل المختلف عليها بينهما ، وأسفرت المفاوضات عن ابرام « الاتفاق الودى » وصار هذا الاتفاق عاملا مهما فى اتجاه السياسة الدولية ، اذ كان تكملة للمحالفة بين فرنسا وروسيا لمقاومة التحالف الثلاثى بين ألمانيا والنمسا وايطاليا .

وكان الجزء الخاص بمصر هو أهم نصوص هذا الاتفاق،

فقد أعلنت انجلترا فى المـادة الأولى منه بأنه « ليس فى نيتها تغيير الحالة السياسية لمصر » وتعهدت الحكومة الفرنسية من جانبها » بأن لا تعرقل عمل انجلترا فى هذه البـلاد لا يطلب تحديد أجل الاحتلال البريطاني ولا بأى صورة « وهـذا الالتزام من جانب الحكومة الفرنسية مقابل التزام الحكومة البريطانية ان لا تعرقل عمل فرنسا فى مراكش .

وبعبارة أخرى اعترفت فرنسا بالاحتـلال الانجليزى وتركت لانجلترا حرية أكثر مما كان لهـا فى الشئون المصرية ، وكان من نتيجة ذلك ان انهـار أمل المصريين فى فرنسا وتحققوا انه لا يمكن الاعتماد عليها ولا على اى دولة فى المسألة المصرية وأن على مصر أن تعتمد على نفسها فى المطالبة بالحرية والاستقلال .

كان هذا الاتفاق من المؤامرات الاستعمارية التى اتفقت عليها الدول الأوروبية لسلب الأمم واغتصاب استقلالها وحقوقها ، وكان من نتائجه ان قوى مركز انجلترا فى مصر ، وظهر تقرير اللورد كرومر فى ابريل سنة ١٩٠٤ ، يفيض سيطرة وعسفا وتكلم فيه بلسـان الحاكم المطلق التصرف ، وطعن فى المصريين بأن رماهم بعدم الكفاية للحكم الذاتى وكان من نتائجه المعنوية أن رجح فى نفوس الخاصة كفـة اليأس ، فتفشت فيهم نزعة الضعف والتخاذل والانصراف عن متابعة الحركة الوطنية .

أما مصطفى كامل ، الزعيم الشاب ، فلم يتراجع أمام الاتفاق ، ولم يتزعزع يقينه فى الجهاد ، لأنه كان قد نفض يده من مساعدة فرنسا منذ حادثة فاشودة .

وظهر ثباته العظيم امام تلك المحنة السياسية الشديدة

ومن أقواله فى ذلك :

قال فى عدد اللواء الصادر فى ١٨/٤/١٩٠٤ :

« انظر الى الشعوب التى أصابها ، ما أصاب شعبك، تجد البولونى وقد تمزق وطنه وعلت فيه كلمة دول ثلاث ، يجد ويعمل مفكرا كل يوم بل كل لحظة فى بولونيا، يذكر تاريخها ويبكى أيامها الخالية ، ويربى ابنه على حبها والتمسك بحقوقها ، والفنلندى وقد لبس هو وبقية أفراد أمته ثياب الحداد يوم قررت فرنسا ضم جيش فنلندا لجيشها ومحو بقية استقلال هذه الأمة، والايرلندى وقد عارض انجلترا فى ضغطها على بلاده وسلبها حقوقه وانظر الى غيرهم وغيرهم ، لتعلم أن الأمم الكبيرة كانت أو الصغيرة حاكمة أو محكومة لا تسمو فيها الأخلاق ولا ينشأ بينها رجال الفكر العالى والعمل الكبير الا بالشعور الوطنى ، فكل عامل على اطفاء نوره ، محارب لأمته وقومه وذويه ، وكل داع اليه مجد ، فى سبيل الحياة القومية الصحيحة والرقى الخالد » .

وفى هذه الكلمة يندد بدعاة التخاذل والاستسلام ، ويدعو الأمة الى متابعة الجهاد والكفاح ، رغم ما يحف بطريق النضال الثورى من عراقيل وعقبات .

وخطب فى مسرح زيزينيا بالآسكندرية فى ٧ يونيو سنة ١٩٠٤ خطبة كبرى جعل موضوعها (الموقف السياسى وواجبات المصريين) .

تكلم فيها عن الاتفاق الودى وائتمار انجلترا وفرنسا بمصر والمراكش ، وحمل على السياسة الاستعمارية الانجليزية والفرنسية ، ثم عرج على سياسة الاستسلام التى يسلكها وزراء مصر وكبراؤها ، وقال أن هذه

السياسة كان لها دخل فى التحريض على هذا الاتفاق « لأنه لا يوجد فى العـــالم انسان يخدم من لا يخدم نفسه ويدافع عن حق من تنازل عن حقه وقد استسلمت حكومتنا للاحتلال استسلاما أبعد عنها كل محب لها ميال لمساعدتها (يشير بهـذا الى وزارة مصطفى فهمى التى كانت تتولى الحكم منذ نوفمبر سنة ١٨٩٥) .

واتخذ من عقد الاتفاق الودى دليلا ساقته الحـوادث على دحض مزاعم من كانوا يدعون ان القائمين بالحركة الوطنيــة محرضون من حزب الاستعمار الفرنسى فقــد بطلت هذه الدعوى بعــد أن أصبحت فرنســا صــديقة لانجلترا « ونحن على حالنا ندافع عن المبـــادىء التى أعلناها للملأ كله من أول عهدنا بالسياسة الى اليوم » .

ثم دعا الى التضحية والثبات قائلا :

« ان الذى يصغى الى صوت ضميره مناديا فى كل لحظة بوجوب خدمة الوطن واعلاء شأنه ، يشعر بأن دم آبائه الذى يجرى فى عروقه يطـــالبه تضحية النفس لتلك الأرض الطاهرة التى لا شرف له الا بها ولا حياة بغيرها ، ولا رفعة بدون رفعتهـــا ، ولا مجـد اذا زال مجدها » .

وذكر ان الوطنية لا تنثنى أمام العقبات :

« سخر أعداؤنا من الوطنية التى ننادى بها وندعو الأمة اليها وقالوا ما شاء لهم الحقد والعداء ، ولكننا نرى ان قيمة الأوطان ليست مما تميل النفس اليه ساعة ثم تنفر منه ساعة ، أو وسيلة للكسب تنقضى بانقضائه ، انما الوطنية شعور ينمو فى النفس ويزداد لهيبه فى

القلب ويرسخ فى الفؤاد كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه ، واشتدت كربته ..

« أجل أيها السادة ، لا حياة لأمة من الأمم بغير الوطنية الحقة ، ولا معنى للعيش بدونها ، ولا تتجدد الآمال وتقوم الأعمال الا بها » .

ثم تكلم عن سياسة الاحتلال وما ترمى اليه من قتل الروح الاستقلالية فى الأمة .

مصر وتركيا

لم يكن من الممكن ان يهدف زعيم وطنى الى جلاء الانجليز وهو لا يملك أية قوة حربية الا أن يستغل كل الأطراف المعنية بموضوع القضية المصرية ، وايجاد رأى عام عالمى ليعلن استنكار الاحتلال الانجليزى ويدعو الى زواله .

والخلافة العثمانية على ما كانت عليه من ضعف ، كان لابد من كسب رضائها عن حركته وارتياحها لدعوته والا قاومت مصطفى كامل وانضمت الى خصومه ، وما كان ليستطيع أن يجمع بين محاربة الانجليز وتركيا صاحبة الحق الشرعى فى البلاد دون تأليب تركيا عليه وتعاونها مع الانجليز .

كما أن الزعيم الناجح لا يستطيع أن يتجاهل الشعور الجماهيرى والولاء الدينى لمقام الخلافة الاسلامية فى قرارة شعوره وفى جذور عقيدته .

ولقد أساء بعض الكتاب تصور خطة مصطفى كامل نحو تركيا ، فزعموا انه كان من انصار السيادة العثمانية ، والحقيقة التى لا يشوبها الشك والتى ابانها فى كثير من خطبه ، أن تركيا بمقتضى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ هى الدولة صاحبة السيادة على مصر ، وقد

اعترفت الدول جميعها بهذه المعاهدة ، بينما لا توجد لدى الانجليز أى وثيقة شرعية تؤيد بقاءهم فيها ، فكان مصطفى كامل يدعو الانجليز وسائر الدول الى احترام هذه المعاهدة ، أضف الى هذا ان تركيا على الرغم من ضعفها وسوء أحوالها كانت تناوىء الانجليز فى مصر وتود جلاءهم عنها ، وهذا يزيد المصريين قوة فى مطالبتم بالاستقلال ، ثم أن سيادة تركيا على مصر كانت سيادة اسمية ، فلا تتدخل في شئونها الداخلية أو الخارجية منذ معاهدة سنة ١٨٤٠ ، وما قبلها ، وقد أشار مصطفى كامل الى هذه المعانى فى خطابه الى مدام جوليت آدم عن خطبته التى ألقاها بالاسكندرية فى يونيو سنة ١٨٩٧ .

« انك تعلمين خطتى نحو تركيا وما أراه واجبا نحوها، فقد أفصحت عن ذلك فى خطبتى واعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأن من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلاقات مع تركيا ما دام الانجليز محتلين وطننا العزيز » وقد أقرته مدام جولييت آدم على هذه الخطة رغم أنها لم تكن تعطف على الأتراك لحبها لليونان .

ولما أثيرت المناقشة حول هذه الخطة سنة ١٩٠٦ لمناسبة الخلاف الذى قام بين انجلترا وتركيا فى حادثة طابا أيد الفقيد موقف تركيا وأتهمه أنصار الاحتلال بأنه يبغى نقل مصر من الحكم الانجليزى الى الحكم العثمانى فرد عليهم فى عدد اللواء الصادر فى ١٩٠٦/٥/٢ . مخاطبا اياهم :

أما دعواكم أن الوطنيين المصريين يريدون الانتقال من استبداد الى استعباد ، وأنهم انما يطلبون خروج الانجليز

من مصر ليدخلوا تحت حكم جديد ، فهى دعوى لا يقبلها أحد ولا يسلم بها أحد من العقلاء ، فاننا نطالب استقلال وطننا وحرية ديارنا ، ونتمسك بهذا المطلب الى آخر لحظة من حياتنا . وقال فى لواء ٦/١٠/١٩٠٦ ردا على جريدة (لانديبندنس بيلج) ان المحرر أخطأ كثيرا بقوله اننا نريد حرية مصر لاعادتها الى حكم الأتراك فقد صرحنا ألوف المرات بأننا نريد مصر للمصريين ، وبأن انعطافنا أو نفورنا من دولة لا يؤثر شيئا على هذا المبدأ الرئيسى لحياتنا وأفعالنا ، ولست أجد لافحام خصومى الا طرح هذا السؤال البسيط عليهم : ماذا يكون مصير البلاد المصرية لو تنازلت تركيا عن حقوقها لانجلترا أو تعاهدت معها على ذلك بمعاهدة شبيهة بالمعاهدة الفرنسية الانجليزية ؟ الا تصير ولاية انجليزية ؟ اذن فلماذا يندهش الكاتب من كوننا نجعل علاقتنا مع تركيا حسنة ، ونسعى لنيل الوسائل التى قد تفيدنا وتنفعنا ، واذا كانت الدول العظمى قد اتبعت الآن سياسة التحالف فمن ينكر على مصر المظلومة المهضومة اتباعها هذه الخطة ؟

وقال فى خطبته الكبرى فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ :

« فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى صوتنا وعلى مسمع من أمم الأرض كلها ، واننا اذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فانما نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناحرون ، واذا كانت انجلترا تسعى الآن للتقرب من الدولة العلية وتغير سياستها نحوها تغيرا محسوسا ، فمن الذى يلوم المصريين على أن يكونوا أقرب الناس من تركيا قولا وفعلا وأن يحافظوا على هذه الصلة ما استطاعوا » .

ونخلص من هذا أن الدعوة الصادقة الى الجلاء كانت تقتضى محاسنة تركيا وعدم مطالبتها وقتئذ بالفساء سيادتها على مصر ، وارجاء هذا المطلب حتى تنجو البلاد من العقبة السكؤود التى تحول دون استقلالها وهى الاحتلال ، ولو تحقق الجلاء فان الغاء السيادة العثمانية ليس بالمطلب العسير على السياسة المصرية .

وقد جارى رجال الحزب الوطنى فى ذلك مصطفى كامل من بعده سنة ١٩١٩ بعد أن وضعت الحرب الكبرى الأولى أوزارها فقد جاء فى تقريره الذى رفعه الى مؤتمر الصلح بعد انتهاء هذه الحرب ، والذى نشر فى ابريل سنة ١٩١٩ ما يأتى :

كان الحزب الوطنى يطلب احترام معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، ولم يكن ذلك عن رغبة منه فى الاستقلال المطلق ، أو كما يقول أنصار الاستعمار الانجليزى سعيا فى تغيير النير الانجليزى بسيادة تركيا ــ كلا ــ فان الحزب الوطنى يتوخى الوسائل السليمة دون غيرها ، لذلك كانت سياسته الاحتفاظ بعضد الدولة العثمانية وتذكير الدول بمعاهدتها الضامنة لمصر الاستقلال ولم نر منذ سنة ١٨٤٠ منها افتئاتا على استقلالنا الداخلى ــ لهذا كان من أسباب سكوتنا عن تركيا ، عدم شعورنا بثقل سيادتها اما الآن فقد وصلت الانسانية الى هذه الدرجة من الرقى ، وقد جئنا امام محكمة عادلة تريد أن ترد الحقوق الى أربابها ، فان لنا ان نطلب كامل الحق ــ جلاء الانجليز حالا والاستقلال التام .

حادثة طابة

ظهرت فى سنة ١٩٠٦ حادثة سياسية هزت أعصاب الأمة ووضعت من جديد مسألة الاحتلال والجلاء على بساط البحث والمناقشة ، يعنى بها حادثة العقبة وتسمى أيضا حادثة (طابة) .

وبيانها أن تركيا اعتزمت فى تلك السنة مد سكة حديدية من معان الى العقبة وهذه السكة تجعل لتركيا قوة جديدة على حدود مصر ، وتهدد مركز الاحتلال الانجليزى فاهتم الانجليز لهذا الحادث ، وأرسلوا ضابطا كبيرا كلف باقامة مراكز عسكرية على طول الخط من العريش الى العقبة .

باعتبار انها من أملاك مصر اذ هى من طور سينا المعهود ادارتها الى مصر ، ولكن الجنود الاتراك احتلوا موقع (طابة) على بعد ثمانية أميال غربى العقبة وقام لذلك خلاف شديد بين انجلترا وتركيا . وظهرت انجلترا بمظهر الدولة الحامية لمصر ، اذ طالبت تركيا باسم مصر أن تجلو عن طابة ، وتهددت وتوعدت كما لو كانت مصر جزءا من أملاكها ، فكان هذا المظهر من علامات الحماية ، مما أثار سخط مصطفى كامل فاستنكر موقف انجلترا من هذه الحادثة ودعا الانجليز الى الجلاء عن مصر بدلا من التظاهر بالدفاع عن حقوقها ، وكانت تركيا تهدف بعملها هذا الى فتح المسألة المصرية من جديد لاجبار انجلترا على الوفاء بعهدها فى الجلاء ، ومن هنا جاء عطف الأمة المصرية على موقفها فى هذه الحادثة . وقد كانت تركيا تتوقع أن تؤيدها بعض الدول الأوروبية فى فتح باب المسألة المصرية ، ولكن فرنسا كانت بحكم « الاتفاق

الودى » مؤيدة لانجلترا ، وطلب سفيرها فى الآستانة من الحكومة التركية الاذعان لمطالب انجلترا ، ووقفت روسيا موقفا يشبه موقف فرنسا ، ولزمت المانيا الجمود حيال هذا الخلاف ، مما جعل تركيا تتجه الى التراجع وانتهت الحادثة بانسحاب الترك من طابة فى مايو سنة ١٩٠٦ ، وتأليف لجنة مصرية تركية لتسوية مسألة الحدود على قاعدة معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، وتلغراف ٨ ابريل سنة ١٩٨٢ المرسل الى الخديو عباس الثانى والذى خول مصر ادارة شبه جزيرة طور سينا ، وانتهت اللجنة من عملها فى أول أكتوبر سنة ١٩٠٦ ، اذ تم الاتفاق على الحدود الشرقية على أن تكون خطا ممتدا من رفح على البحر الأبيض المتوسط الى نقطة واقعة غربى العقبة بثلاثة أميال ، وبقيت طابة ضمن املاك مصر ، والعقبة من أملاك تركيا .

وقد جاءت حادثة العقبة دليلا ساطعا على كراهة الأمة للاحتلال وللحماية المقنعة التى انتحلتها انجلترا على مصر ، وبرهانا ساطعا على تأثير المعانى الوطنية التى بثها الفقيد فى النفوس .

حادثة دنشواى

ان حادثة دنشواى من الأحداث التاريخية فى تاريخ مصر ، لما كان لها من الأثار البالغة فى تطور الحركة الوطنية ، وفى مركز الاحتلال الانجليزى . والحادثة باختصار . ان خمسة من ضباط الاحتلال رغبوا يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٠٦ فى صيد الحمام في بلدة دنشواى التابعة لنقطة بوليس الشهداء بمركز شبين الكوم . وأثناء

اطلاقهم بنادقهم على الحمام ان أصاب أحدهم امرأة كانت زوجة محمد عبد النبى المؤذن فى القرية . فسقطت المرأة جريحة ، تتخبط فى دمائهـــــا ، واشتعلت النار فى الجرن ، فصاح أحد الفــــلاحين مستغيثا وهجم على الضابط الذى أطلق النار ، وتجاذب واياه بندقيته ، وأقبل الرجال والنساء والأطفـــال هائجين صـــائحين : الخواجة قتل المرأة ، وحرق الجرن ، وأحاطوا بالضابط وجاء بقية الضباط لانقاذ زميلهم فتكاثرت جموع الأهلين، ووصل فى نفس الوقت شيخ الخفر ومعه الخفراء لتفريق الجموع وانقاذ الضباط ، فتوهم هؤلاء أنهم جاءوا يريدون لهم شرا فأطلقوا عليهم العيارات النارية ، فأصاب أحدهم شيخ الخفر فى فخذه فسقط على الأرض وأصاب عيار آخر اثنين آخرين أحدهما من الخفراء ، فصاح الجميع « شيخ الخفر قتل » فحملوا على الضابط بالضرب بالطوب والعصى الغليظة وأثخنوا من لحقوا بهم ضربا ، فأصيب أحد الضباط بكسر فى ذراعه ، وجرح الضابطان بجروح خفيفة ، وأحاط بهم الخفراء مع زميل رابع لهم وأخذوا منهم أسلحتهم ، وحجزوهم حتى جاء ملاحظ البوليس وأوصلهم الى المعسكر .

أما الكابتن بول والطبيب البيطرى الانجليزى وهما من أعضاء فريق الصيد ، فتركا مكان الواقعة ، وكان الأول منهما قد أصيب اصابة شـــديدة فى رأسه . وأخذا يعدوان حتى قطعا نحو ثمانية كيلو مترات فى حمارة القيظ ، فلم يــكد الـكابتن بول يصـــل الى باب سوق « سرسنا » حتى سقط من الاعياء ، ومات بعد ذلك متأثرا من ضربة الشـمس ، ولمـا ســقط تركه زميله الطبيب البيطرى وأخذ يعدو حتى وصل معسكر الكتيبة بناحية

كمشوش على ضفة الترعة الباجورية . فأخطر الجنود الذين هرولوا الى مكان الواقعة ، ولم يكادوا يقطعون بضعة كيلو مترات حتى بلغوا « سرسنا » وظنوا أنهـا دنشواى ، وهناك وجدوا ضابطهم على الثرى ، ورأوا فلاحا هو « سيد أحمد سعيد » يقدم اليه قدحا من الماء ، فظنوه من الضاربين ، فأخذوا يطعنونه ويضربونه ببنادقهم حتى هشموا رأسه ومات بين أيديهم ، وذهب دمه هدرا ولم يحاكم أحد .

ثار الاحتلال لهذه الحادثة علما بأن المسئول الأول عنها هم الضباط الذين اقتحموا بدون حق غيطان الأهالى وأجرانهم لاصطياد الحمام المملوك لهم ، وذهب المستر ميتشل مستشار وزارة الداخلية الى مكان الحادثة يوم وقوعها ، وجرى التحقيق بمنتهى السرعة وأخذ ولاة الأمور يقبضون على الأهالى جزافا ، وأعدت المشانق وأرسلت لمكان الواقعة قبل أن ينتهى التحقيق ، وانعقدت المحكمة المخصوصة صباح ١٩٠٦/٦/٢٧ ، وقضت بأفظع أحكام وهى الاعدام شنقا على أربعة من المتهمين هم حسن على محفوظ ويوسف حسن سليم والسيد عيسى سالم ومحمد دزويش زهران والأشغال الشاقة على محمد عبد النبى وأحمد عبد العال محفوظ والسجن لمدة ١٥ سنة ، و ٧ سنوات على عدد آخر من المتهمين مع الجلد .

وقد قوبل هذا الحكم بالدهشة لصرامته ، ولأنه فاق كل ما كان يتوقعه المتشائمون وخلا من كل انصاف وعدل .

مصطفى كامل وحادثة دنشواى :

رغم انه كان وقتها في أوروبا للاستشفاء ، ونصح له الأطباء بالتزام الراحة والهدوء فانه لم يكد يصله أنباء المحاكمة حتى ثارت نفسه ، وتحرك قلبه الكبير الى العمل والجهاد ، ونهض بكل قوته لكى يسمع العالم صوت مصر ، ويعلنها حربا شعواء على الاحتلال وسياسته ، فكتب فى جريدة « الفيجارو » الفرنسية المشهورة فى عدد ١١/٧/١٩٠٩ مقالة كبيرة نشرت فى صدر الجريدة بعنوان (الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن) شرح فيها ظروف الحادث وعرضه على الضمير الانسانى فى العالم ، فكانت تلك المقالة من أبلغ واقوى ما كتب مصطفى كامل بلسان مصر ، وقد استطرد فيها الى جهاد المصريين فى سبيل الاستقلال وابان ان حادثة دنشواى قد قضت على مزاعم اللورد كرومر فيما كان يذيعه ، من ان الفلاحين المصريين محبون للاحتلال الانجليزى .

وأحدثت المقالة فى أوروبا دويا عظيما ، وتناقلتها جميع الصحف العالمية فى مختلف البلدان ، وكان لبلاغتها وعباراتها المؤثرة ، وصدورها من زعيم الحركة الوطنية ، والتعليق عليها فى معظم الصحف الأوروبية والبريطانية ، صدى بعيد فى الرأى العام الأوروبى والانجليزى ، وتزلزل بعدها مركز اللورد كرومر فى مصر وانجلترا ، ونصحت جريدة « التربيون » الانجليزية بوجوب منح مصر حكومة مستقلة . والغريب أنه لم يحتج واحد من المصريين المسئولين فى مصر على هذا الحكم الفظيع ولم يستقل وزير من الوزارة المصرية اظهارا لإستيائه وشعوره .

وهذا يدل على مدى ما وصلت اليه البـــلاد من استكانة ، وانبرى مصطفى كامل وحده عن الأمة المصرية جمعاء يعرض قضية بلده المظلوم على محكمة العـــالم أجمع . وقد نجح فى هذه المهمة أبلغ نجاح .

وكان من نتائج استغلال مصطفى كامل فظاعة هـذا الحادث وللتنديد بمساوىء الاحتلال الانجليزى آن أثير الجـــدل بسبب حادثة دنشـــواى فى مجلس العموم البريطانى ، وعدل رجال الاحتلال بعدها من سياستهم المتعسفة نحو مصر وأجبر اللورد كرومر على الاستقالة عقب هذه الحادثة وهى نهاية عهد كان الاحتلال يتمتع فيه بالاستقرار والطمأنينة ، وبداية مرحلة جديدة من مراحل الجهاد القومى ، عم فيها الشعور الوطنى بعد ان كان الظن أن سواد الأمة راضية عن الاحتلال .

ومما يذكر فى صدد حادثة دنشواى ان الكاتب العالمى (جورج برنارد شو) كتب عن هذه الحادثة فصلا من ستة عشر صفحة فى مقـــدمة كتاب (جزيرة جون بول ، الأخرى) ولم يكتب أحد فى قضية دنشواى من الأجانب ما يضارعه فى صدق العاطفة والدفاع ومضاء الحجة ، وشدة الغيرة على المظلومين فى هذا الحادث المشئوم ، حتى لقد قرن (شو) فى انجلترا باسم دنشواى ومما قاله فى تلك المقدمة :

« ان الفلاحين لم يتصرفوا فى هذا الحـادث غـير التصرف الذى كان منتظرا من جمهرة الفلاحين الانجليز ، لو أنهم أصيبوا بمثل مصابهم فى المال والحرمات ، وان ، الضباط لم يكونوا فى الخدمة يوم وقوع الحادث بل كانوا لاعبين عابثين ، وأساءوا اللعب وأساءوا المعـاملة وان

الفلاح الانجليزى ربما احتمل عبثا كهذا لأنه على ثقة من التعويض ولكن القرويين لم تكن لهم هذه الثقة فى التعويض ولا بالانصاف ، وان أحد المشنوقين كان شيخا فى الستين ، يبدو من الضعف كابن السبعين ، فلو لم يشنق لجاز أن يموت فى السجن قبل انقضاء خمس سنوات .

ثم أجمل فى الحادثة وقائع المحاكمة ، وأقوال الشهود وما جوزى به بعضهم على الصراحة فى أداء الشهادة وأشبع اللورد كرومر ووكيله (مستر فندلى) تقريعا وسخرية على ما كتباه فى القضية الى وزير الخارجية ومنه قول (فندلى) فى تسويغ عقوبة الجلد بمصر (ان المصريين قدريون لا يهمهم الموت ، كما تهمهم العقوبة البدنية) ، فكان تعقيب (شو) على هذا التعليل العجيب، ان العجب اذن فى أمر الأربعة المشنوقين اليسوا من المصريين ..

***

الموال الشعبى القديم عن حادثة دنشواى والذى يحفظه أهلها :

شوفو الانجليز جم بحرى دنشواى واعتدم
اللى انشنق مات واللى فضل جلدم
ياما أصعبه يوم نهار زهران ووقفاته

**

ياما بكت أمه وعياله واخواته
وكان له أخ فى الجهاديه نهار شنقاته ما فاته

**

ربنا خلق لنا مصطفى كامل والرب كامل

يشهد ما بين الانجليز وما بين رب العباد كامل

**

وخلق لنـــا حسين باشـــا البرنس
يقــول غــير المسيسة وكــلام الحق متقلش

**

فلمـا جـه السـبع ما اسـتناش
ســافر بلاد الانجليز لم خل ولا بقـــاش

**

أهم زقــوه مات ياخسارة يامصطفى ولا بقاش

**

طلب مكافأة لصــاحب الدم دفعـــوله
الطبل والمزازيك غابم اربعـين يوم يبركوله

**

أحمـــد بك اللئيم بده يحـــاربنه
وشهد معــاهم لاجل القـــرش والمــال
(احمـد بك حبيب مدير المنوفية)

**

يارب تخرب بيوت الانجليز والعـدا الـكل
بحق دعــوة نبينـــا مصطفى الرســل

مواقف في حياة مصطفى كامل :

١ ـ موقفه من الخديو عباس حلمى الثانى :

كانت الظروف التى تولى فيها عباس حلمى الثانى الحكم ظروفا دقيقة . فقد دعى من فيينا لتولي الحكم في مصر في الثامنة عشرة من عمره في شهر يناير سنة

١٨٩٢ والاحتلال قد أرسى قواعده فى البـــلاد وتمكن الانجليز من وضع أيديهم على كل شيء ولكن عباسا كان وطنيا . لقن مبادىء الاستقلال والشعور بالوطنية ، وقد عزم على استرداد حقوق بلاده ولا غرو فى ذلك فقد كان ناقما على جده اسماعيل اسرافه وعلى أبيه توفيق استسلامه . وشعر ان شباب الأمة يبادله هذا الشعور .

وفى ذلك الوقت كانت فرنسا تشـــعر بخطئها فى سياستها الماضية التى آلت الى ضعف نفوذها فى مصر فأخذت تبحث عن طريق لاسترداد بعض ما فقدت فرأت أن يكون من هذه السبل الالتفاف حول عباس ، وتركيا كذلك تأسف كل الأسف وتتجه هذا الاتجاه — وكل هؤلاء وهؤلاء يطالبون بالوفاء بوعد الانجليز بالجلاء .

والحـكومة الانجليزية تلوح من طرف خفى للخـديو ان يتبع سياسة والده فى مسالمتهم .

وأخذ الخديو عباس يتصل بالشعب ويقوى نفوذه عن طريق الرحلات الى المديريات ومقابلة الأعيان وزيارة المعاهد والمدارس كمـا أخذ يميل الى مباشرة الأعمـال بنفسه والاتصال بالمديرين وكبـــار الموظفين وتكليفه المختصين كتابة التقارير عن حالة التعليم والجيش ونحو ذلك .

عند ذلك بدأت تظهر فى البلاد تيارات مختلفة وبدأت توضع بذور الأحزاب المختلفـــة وبدأت تتجلى بوضوح اتجاهات الصحف .

هذه تؤيد الحركة الوطنية وتناصر الميول الخـديوية وهذه تؤيد السياسة الانجليزية اما رغبة فى الاستفادة واما عن عقيدة أيضا .

وقد وجد الخديو عباس فى مصطفى كامل الزعيم الوطنى الشاب الذى استطاع على حداثة سنه أن يجمل علم الجهاد فأعجب بهذه الشخصية الفذة . اذ وافقت ميوله وآماله فى بداية حكمه . فأمدها بالمال والتأييد وقتا ما . ومن هنا توثقت روابط الود والتعاون بينهما .

ساهم اذن الخديو فى الحركة الوطنية وقتا بماله ونفوذه الأدبى على أن العلاقة بينه وبين مصطفى كامل قد اعتراها الفتور بعد ذلك وانتهت الى مقاطعة مصطفى كان الخديو بسبب عدم ثباته على خطة واحدة واستماعه الى الوشايات والدسائس وكانت هذه الخطوة من مصطفى كامل تدل على شجاعة وقوة وعزيمة وطنية قوية وزعيم قد آلى على نفسه الاحتفاظ بكرامة الزعامة الوطنية والاخلاص القوى للقضية الوطنية . ولذلك احتفظ مصطفى كامل باستقلاله وعلو نفسه تجاه الخديو ورأى فى استقلال الحركة الوطنية عنه ما يزيدها قوة وروعة ، كتب فى هذا الصدد الى صديقه وزميله فى الجهاد محمد بك فريد ضمن كتاب له بتاريخ ٥ أغسطس سنة ١٨٩٨ يقول :

باريس فى ٥ أغسطس سنة ١٨٩٨ .

أخى الأمجد فريد بك أعزه الله .

أقبلك ألف قبلة وأهديك أطيب تحية . وصلنى بالأمس خطابك الكريم كما وصلنى اليوم الجمعة الماضية ما طلبته منك . فلك الشكر مزدوجا ، شرف العزيز وسافر وتشرفت بمقابلته جملة مرات ـ هذا الخبر لك وحدك ـ وعلمت منه أمورا جمة سرتنى للغاية وشرحت صدرى وحققت لى أن الأمل ملء فؤاده وان ليس لليأس

عليه سلطان وسأقابله مرة أخرى فى الشهر الآتى وقد قابل هنا وهناك كل ذى شأن وكل عظيم . واستمال من لا يستمال . فله منا الود والاخلاص والحب الحقيقى. وانه لجدير بأن نتفانى فى محبته ولم أكلفه مدة وجوده ولم أطلب منه شيئاً ولو ان سفرى لألمانيا سيكلفنى كثيرا وكثيرا . وذلك لأنى لا أود أن أجعله يرتاب فى اخلاصى الخالص له وسأبذل جهدى بعد عودتى للوطن المحبوب فى أن أكون مستقلا غاية الاستقلال لتزداد عنده مكانة ونفوذا » .

ويلقى هذا الخطاب ضوءا ساطعا على علاقة مصطفى كامل بالخديو ويدل على اخلاصه وابائه وعلو نفسه ، وذلك فى الفترة التى كان الخديو فيها مؤيدا للحركة الوطنية !!

وقد فترت صلة الخديو بالحركة الوطنية وتزعزعت ثقته فيها بعد حادثة فاشودة ، وضعف أمله فى الجلاء فتقرب الى الانجليز ومالأهم . وأخذ يتحبب اليهم والنزول على رغباتهم فبعدت الشقة تبعا لذلك بينه وبين الزعيم مصطفى كامل . ومع ذلك فرأى رحمه الله بثاقب نظره على أن لا يقع الانقسام بين الأمة وبين الخديو فيستفيد الاحتلال من هذا الانقسام كما استفاد الاحتلال سابقا من الخلاف الذى شجر بين توفيق والعرابيين لذلك كان يعمل دائما على ايجاد جو من التفاهم بين الخديو والأمة .

قطع علاقته بالخديو :

ثم جاء الاتفاق بين انجلترا وفرنسا فى ابريل سنة ١٩٠٤ وظهر انحياز الخديو بشكل واضح الى الاحتلال

فرای أن يقطع علاقته به ، وأعلن المقاطعة فى عدد اللواء الصادر فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٠٤ ، وانه أعتزم الابتعاد عنه حتى لا يظن أحد ان عليه شيئا من المسئولية فى جهاده السياسى ، قال فى هذا الصدد :

« ان المخلص فى عمله يجب أن يؤدى الواجب عليه ، ولو ضحى فى سبيله مصلحته الذاتية وأعز ما تميل اليه نفسه .. ثم قال :

« وانى لا أشك فى أن كل قارىء بل كل مصرى عرف خطتى وخبر مبادئى ، يدرك حقيقة مسعاى ومقصدى ويعلم انى لا أطلب بذلك الا خدمة البلاد وعرش الخديوية بالثبات الذى لا تتغلب عليه الأيام والعقيدة الراسخة التى قد تحول الجبال وهى لا تتحول » .

وقال فى حديث له الى جريدة (البول مول جازيت الانجليزية) فى ديسمبر سنة ١٩٠٦ ونشر هذا الحديث فى جريدة اللواء فى عددها الصادر فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٠٦ « لما رأيت رغبة سموه فى توطيد الصلات الحسنة بينه وبين ملك الانجليز وحكومته وجدت من واجباتى أن أكون بعيدا عن سموه » .

وقد أرسل عقب عودته من أوروبا سنة ١٩٠٤ الكتاب الآتى الى الخديو يصارحه فيه بموقفه حياله قال :[١]

« مولاى ..

تشرفت فى ديفون بالمثول بين يدى سموكم يوم ٢٧ اغسطس الماضى سنة ١٩٠٤ ورفعت الى مقامكم السامى ان الحالة السياسية الحاضرة تقضى على بأن أكون بعيدا عن فخامتكم وأن أتحمل وحدى مسئولية الخطة التى

اتبعها نحو الاحتلال والمحتلين . منعـا لتـكدير خاطركم الشريف . ودفعا لما عساه يقع من الخلاف والنزاع .

« وقد رأيت يا مولاى بعد التفكير انه صار من المحتم على القيام بهذا الواجب وانه أول عمل يلزمنى تأديته عقب عودتى الى الوطن العزيز لأن الانجليز أظهروا فى خلال السنوات الأخيرة من التضييق على جنـابكم العالى ما يجعل وجود رجل ينتقد سياستهم فى الصباح والمساء بجانب سموكم ، داعيا لاعتدائهم على حقوق ذاتكم السنية وحجة لتدخل جديد غير محمود .

وانى بعد أن رأيت احتجاجهم على جنابـكم الرفيع بمناسبة المقابلة التى تفضلت جلالة ملكة البرتغال بمنحى اياها ، ومعارضتهم العنيفة لفخامتكم بسبب الاستقبال الودى الذى نالته مدام جولييت آدم من لدنكم ، وتصريحكم بأن الانجليز لا تسمح لجنابكم العلى باكرام من يعاديها ، وادعاءهم بأن كل ما يكتب أو يقال ضدهم موعز به من سموكم ...

وانى أرجو أن يعتقد مولاى حفظه الله انى لم أقصد الا محض خدمته بما قلته لسموه بشأن أولئـك المفسدين الذين يلصقون بالمعية ويضرون بهـا أكثر من أعضائها الظاهرين ...

الى ان قال : « وانه ليحلو لى ان أبقى الى آخر لحظة من حياتى خادما لتلك المبادىء الوطنية العالية التى كنتم سموكم أول الداعين والمنادين بها . وان تزداد كل يوم اتساعا الهوة التى بينى وبين الذين ادعوا خدمة الوطن ليخدموا مصالحهم ثم انقلبوا عليه بلا خجل ولا حياء .

مصر فى ١٩٠٤/١٠/٢٤ مصطفى كامل

ويعد هذا الخطاب من أخلد صفحات الاخلاص فى الجهاد . وفى ذلك الوقت بعد ما تغلغل الاحتلال فى السيطرة على جميع مرافق البلاد ، يحتاج الزعيم لشجاعة فائقة لكى يجابه حاكم البلاد المؤيد بقوة الاحتلال بالمقاطعة والتحول عنه . ومجاهرة مصطفى كامل الخديو وهو وقتئذ سيد البلاد الشرعى بقطع علاقته به . ومقاومة الاحتلال وهو فى أوج سلطانه . كل أولئك يقتضى حظا كبيرا من الجرأة والاستقلال . ولا يقدم عليه الا من تغلبت فيه الشجاعة والوطنية على كل اعتبار للمصلحة الشخصية .

وقد ظهر استقلال مصطفى عن الخديو ، فى نقده تصرفاته على صفحات اللواء ومن ذلك نقده اياه لاحالته حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديوى على المعاش ، لأن الاحالة لم تكن قانونية وقد أحاله بسبب موقفه المشرف فى الحادثة المعروفة بحادثة مشتهر وخلاصتها ان أحد الماليين اليونانيين الذين لهم صلة بالخديو (وهو المسيو زرفوداكى) عرض على ديوان الأوقاف أخذ أطيان له بالجيزة مقابل تفتيش مشتهر التابع للأوقاف الذى كان اتفق مع الخاصة الخديوية على شرائه ، ولما عرضت الصفقة على مجلس الأوقاف الأعلى ، ولما كان حسن باشا عاصم من أعضائه فقد رفض اقرار هذه الصفقة لأنها تنافى المصلحة العامة رغم انها كانت فى مصلحة الخديو ، فكان موقفه وهو رئيس الديوان الخديوى دليلا على استقلاله ونزاهته (نشر هذا فى عدد اللواء الصادر فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٠٤) وكان انتقاد مصطفى كامل احالته على المعاش تحديا للخديو ومغالنته بالعداء .

وانتقده أيضا لوقوفه تحت العلم البريطانى فى حفلة

استعراض الجيش الانجليزى بميدان عابدين فى نوفمبر سنة ١٩٠٤ ولم يكن يحضرها من قبل .

وانتقد انصرافه الى مصالحه الخاصة وعدم اهتمامه لشئون البلاد فى مقالة له فى عدد اللواء الصادر فى ١٩٠٤/٤/١٠ .

ومنذ يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٩٠٤ وهى آخر مقابلة له بالخديو . انقطعت علاقته به نهائيا وكان اقدامه على هذه الخطوة الحاسمة مما زاده منزلة ورفعة ، اذ ظهر استقلال الحركة الوطنية عن الخديو وعدم تأثرها به مطلقا . ولما اصدر مصطفى كامل جريدتى لتندار اجبسيان الفرنسية ، ذى اجبشيان استاندرد الانجليزية فى أوائل سنة ١٩٠٧ حنقت الصحف الانجليزية من ظهورهما واتهمت الخديو بالمساهمة فى رأس مالها فنشر الزعيم (ردا على هذه المفتريات) أسماء المساهمين فى رأس مال الجريدتين ومقدار اكتتاب كل منهم . فكان هذا الاعلان قاطعا فى اثبات عدم وجود أية علاقة للخديو بظهور الجريدتين وعدم صلته بهما .

ولما استقال اللورد كرومر فى ابريل سنة ١٩٠٧ وخلفه السير الدون غورست اشتد تقرب الخديو للانجليز وظهر هذا التقرب فى حديث له نشر فى جريدة الديلى تلجراف فى مايو ١٩٠٧ اذ نفى عن نفسه تهمة العمل ضد الاحتلال وذكر اللورد كرومر بالخير وصرح بأن المعتمد البريطانى لا يستطيع حكم مصر وحده . وانه مستعد للتعاون معه . وانه لا فائدة للمصريين من استبدال احتلال باحتلال وان الاحتلال البريطانى أفضل من أى احتلال آخر ، فانتقد الزعيم هذا التصريح انتقادا حازما . رغم صدوره من الرئيس الأعلى للدولة ، قال فى هذا الصدد :

« مما يجب علينـــا اعلانه والجهر به أمام الملأ كله ان تصريحات الجناب العالى لا تفيدنا بأى حال من الأحوال ، لأن مركز سموه غير مركزنا على أن كل مصرى صـــادق الوطنية لا يقبل مطلقا أن يكون حكم مصر بيد سمو الخديو بمفرده . أو بيد المعتمد البريطانى أو بيد الاثنين معا بل يطلب أن يكون حكم هذا الوطن العزيز بيد النابغين والصادقين من أبنـــــائه . وأن تكون نظامات الحكومة دستورية ونيابية » نشر هذا الحديث فى عدد اللواء الصادر فى ٢٦ مايو سنة ١٩٠٧ وقال فى موضع آخر :

« قد قلنا مرارا أن سمو الأمير بعيد عن الحركة الوطنية وان المجاهدين مستقلون عن سموه كل الاستقلال . فهو ان قال كلمة فى صالح الحـــركة الوطنية خدم نفسه وعرضه واستمال أمته اليه . وان عمل ضدها أضر بنفسه وبعرشه ونفر أمته منه .. » .

وقال فى موضع آخر :

« لقد اتهموا الحزب الوطنى تارة أنه موحى اليه من الدولة العلية . وطورا من المانيا وتارة من سمو الخديو وقد سقطت التهمتان الأوليان من قبل . وهـــذه الثالثة قد سقطت الآن معها فحان الأوان أن نهيىء أنفسنا » .

وكتب من (نيو هوزن) فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٠٧ الى صديقة المرحوم محمد فريد بك كتابا يدل فيه على مبلغ استيائه من خطة الخديو وتحبيذه الابتعاد عنه قال :

نيوهوزن فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٠٧ .

الف قبلة وألف سـلام وبعـد فقد حظيت باستلام خطابك العزيز المؤرخ ١٥ الشهر الجـــارى . وسأقرأ مقالتك فى القطار بامعان لأنى مسافر الآن الى باريس .

أرجوك عدم تفخيم الخديو فى كتاباتك فقد علمت عنه ما لا يسر ولابد أن تضره السياسة ذات الوجهين ضررا كبيرا وكلما كان عمل الوطنيين بعيدا عنه كان الفلاح محققا » .

ولقد أثار بعض الكتاب المعاصرين بأن مصطفى كامل كان مخدوعا بالخديو ، وانه كان يعمل لمصلحة طاغية من طغاة أسرة محمد على ، كان يستخدمه كوسيلة لمحاربة الانجليز لأنهم حدوا من نفوذه حتى اذا ما جلا الانجليز عن البلاد انفرد بالحكم والسيطرة على الشعب سيطرة غاشمة ، ولكن هذا الرأى مردود ، لأن واقع الحال لا يؤيده .

حقيقة كان عباس حلمى يغذى مصطفى كامل بنفوذه المادى والأدبى فى أول الحركة ، ويؤيده ليتزعم فريقا من المصريين يسعى حثيثا لطرد الانجليز وتخليص البلاد من احتلالهم . وكان من الحكمة أن يتعاون مصطفى كامل مع الخديو ضد العدو المشترك للبلاد ، ويعلن ولاءه له على رءوس الاشهاد ، ولكن مصطفى كامل لم يكن جاهلا أو غبيا بل كان كتلة من الذكاء والمضاء والعبقرية ، وهو يعرف الخديو معرفة حقة ، ولذلك لم يتوان مصطفى كامل رغم وجود الانجليز بمطالبة الخديو بالدستور . والدستور هو قانون الدولة الشامل الضامن لحقوق أفرادها ، المحدد لسلطات حكامها ، الحريص على اعطاء الشعب حقوقه الديمقراطية الكاملة . واذا كان هذا الفريق من الكتاب بعد أكثر من نصف قرن من دعوة مصطفى كامل يتهمونه هذا الاتهام جزافا ، فلماذا لا نفترض بل ونجزم ان مصطفى كامل كان يخدع الخديو لضمان تأييده للحركة الوطنية ، حتى اذا ما خلصت

البلاد من العدو الأكبر وهو الانجليز ، طالب الخديو بحقوق الشعب ، وأوقفه عند حده ، والزمه الخضوع للدستور وسعى الى الحد من طفيانه وتحديد اختصاصاته وتطبيق المثل الدستوري المعروف أن الملك في الحكم الدستوري يملك ولا يحكم ، حيث ان الديمقراطية التي نادى بها مصطفى كامل ، والدستور الذى أعلن على رءوس الاشهاد المطالبة به ، كان في صميمه الاعتراف بمبدأ فصل السلطات . وهى السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية . وان السلطة التشريعية هى لممثلي الشعب المنتخبين ، وانهم هم المسئولون في التشريع والحكم وتوجيه السلطة التنفيذية .

ان مصطفى كامل في تعاونه مع الخديو كان يقوم بالاجراء المنطقي الذى درسه على زعماء الثورة العرابية الذين نصحوه بالتفاهم مع الخديوي لأبعد مدى ، حتى يسد ثغرة يمكن أن ينفذ منها الانجليز لضرب الحركة الوطنية كما فعلوا أثناء الثورة العرابية اذ أثاروا الخديو على عرابي وأثاروا السلطان خليفة المسلمين على عرابي باعتباره خائنا ومارقا على طاعة أمير المؤمنين .

ولما وجد مصطفى كامل ان عباس حلمي قد تنكر لمبادئه ، وترامى في أحضان الانجليز بعد الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤ ، وعلم أن لا أمل منه ، وانه سيحارب الحركة الوطنية قاطعه بكل شجاعة وثبات ، وأعلن هذه المقاطعة على الملأ ، دون خوف من وعيد أو تهديد ، بل اكثر من هذا ، كان معرضا للقتل ، بعد تعاون الخديو الحاكم الشرعي مع انجلترا الحاكم المستعمر المغتصب .. ؟؟

وفي الخطابات السرية الخاصة التي كتبها مصطفى

كامل لمحمد فريد ، كان نقده لاذعا لتصرفات عباس حلمى المشينة فى أوروبا ، فقد ذكر فى أحد هذه الخطابات ، أن الصحفية الفرنسية الكبيرة مدام جولييت آدم أقامت تكريما للخديو عباس بمناسبة وجوده بباريس ، حفلة شاى فخمة فى دارها بالاتفاق مع مصطفى كامل والاستفادة من وجوده فى هذه اللحظة ، واستغلال حضوره ، للدعاية للقضية الوطنية ، وجمع المؤيدين من رجال الرأى فى فرنسا ، لتأييد الجلاء والدعاية له ، فما كان من عباس حلمى الا أن تنكر لهذه الدعوة ، رغم وعده بالحضور ، وأخذه علما مسبقا بها ، وفضل أن يقضى وقته عابثا مع احدى عشيقاته الفرنسيات عن الحضور لحفلة تخدم قضية الوطن ، وقد علق مصطفى كامل تعليقا ساخرا بهذا التصرف المزرى من شخص كبير مسئول ، كان الظن به ، أن يحقق ظن البلاد فيه ، ويستفيد من كل فرصة فى سبيل خدمة بلاده ، كما كان الموقف مخذلا لمصطفى كامل ، خاصة أمام صديقته الكاتبة العظيمة ، التى نظمت هذه الحفلة تقديرا منها لقضية لمصر ولصديقها الوطنى الشاب ، المتقد حمية لانقاذ بلاده .

من هذا نرى بأن مصطفى كامل لم يأل جهدا فى سبيل الاستفادة من كل وسيلة ومن كل شخصية تنفع القضية الوطنية ، وانه لم يخدع من عباس حلمى ، ولم يؤخذ به .واستفاد بمعاونته حين كانت وجهته وطنية سليمة ، ولكنه حين انحرف بمعاهدة رجال الاحتلال الانجليزى قاطعه مقاطعة سافرة واضحة ، وأشهد الوطن والعالم بأسره بأنه لن يحيد عن جهاده مهما حدث من خطوب وانه سيوالى الجهاد حتى آخر نسمة من حياته .

ومع ذلك فقد اعترف عباس حلمى فى مذكراته التى نشرتها جريدة المصرى فى ١٩٥١/٥/١٨ بفضل مصطفى كامل وينفى أن يكون عميلا أو أجيرا له فيقول :

« ليس هناك ما هو أشد بعدا عن الحقيقة من هذا الذى قيل ، ان مصطفى كامل لا ينتمى الا الى نفسه .

ثم يقول أيضا :

« كان مصطفى كامل أول من نشر الفكرة الوطنية بين الشباب المصرى الذين كانوا يتلقون دروسهم فى أوروبا وهو الذى أيقظ الروح المصرية من سباتها ، وضم الى عقيدته وحزبه السواد الأكبر من الموظفين وكثيرا من الأعيان والمثقفين وجميع الطلاب والعمال . وكان مترفعا عن الدنايا ولم يتاجر فى السياسة ، كان بسيطا ومستقيما . كان يخفى فى مظهره الساكن روحا تواقة الى جلائل الأعمال ، وقلبا مليئا بمختلف مشاعر الدعة والطيبة ، لقد وهبه الله ميزة المنطق والجدال ، كان فصيح اللسان ، وكانت جمله سلسة قوية ، وكان يتقن فن الاقناع فى جاذبية سحرية .

كان حبه لوطنه ينبعث من حماس شديد ، دون أن يجعله يفقد اتزان العقل .. الى أن قال : كان صوته يدوى الى ما وراء النيل ، لقد عقد صداقات متينة فى أوروبا ولا سيما فى فرنسا وابتدأ صوته يسمع فى انجلترا فى أواخر حياته ، وكان رجلا نافعا حقا لوطنه . كانت جنازته فخمة اذ شيعتها مصر بأجمعها ، وجاء من القرى النائية آلاف مؤلفة من أنصاره لتشييعه الى مقره الأخير .. كانت روحه مصدر ايحاء للشعب الذى ورث مثله العليا » .

اللـــــواء والجـريـدة
في ســاحة الجهاد الوطني

التفت الجماهير العطشى لمناهل الوطنية حول رائدها الزعيم الشاب مصطفى كامل ، تروى صداها من ورده السائغ ، ونبعه العذب ، وتزحف صفوفها وتزأر حوله ، معلنة العزم على الجهاد والفداء لاستخلاص حق الوطن المقدس .

ولكن فريقـــا من المواطنين لم يرضهم هذا الاندفاع الحماسي الجماهيري ، وخشوا مغبته أو عاقبته ــ وسواء كانوا فى ظنونهم على خطأ أو صواب ــ أو غاب عن ظنهم وادراكهم غاية حـــركة مصطفى كامل أو التبس الأمر عليهم ، فيما اذا كان مصطفى كامل يستخدم ولاءه للخلافة العثمانية لغاية واحدة هى انهاء الاحتلال أو شىء آخر بعد ذلك .. واعتقدوا أن الاحتلال قد ينتهى ويواجهون من جديد نوعا من الحكم التركى ، واستبدادا أشنع من استبداد الخديو ، ولذلك جمعـــوا جموعهم وأنشأوا « حزب الأمة » فى سبتمبر سنة ١٩٠٧ برئاسة محمود سليمان باشا وعضوية حسن عبد الرازق وعلى شعراوى ولطفى السيد ومحمد محمود وعمر سلطان وأحمد حجازى وغيرهم .

وتألفت شركة لانشاء « الجريدة » كان من الشركاء

فيها عدا من ذكرنا أحمد فتحى زغلول رئيس محكمة مصر حينئذ وأحمد عفيفى المستشار بالاستئناف وعبد الخالق ثروت .

وأكثر هؤلاء هم الذين كانوا فيما بعد نواة « حزب الأحرار الدستوريين » الذى ألف على أثر اعلان تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ .

والملاحظ على حزب الأمة انه جمع كبار الملاك والاقطاعيين ورجال الطبقة الرأسمالية وطائفة من المثقفين الذين تأثروا بالثقافة الغربية أكثر من تأثرهم بالثقافة الاسلامية ، وهذا العنصر كان قليلا حينذاك فى مصر كما أن نوع تفكيره كان جديدا على البيئة المصرية لذلك لم يلق استجابة من الأغلبية الشعبية حينئذ .

وأعلن حزب الأمة برنامجه فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٠٧، ولنستشف اتجاهاته وآرائه فى هذا الباب مما ورد فى « الجريدة » لسان حاله . لنرى الى أى مدى اختلفت مبادىء الجريدة عن مبادىء اللواء لسان حال الحزب الوطنى .

كانت الجريدة تطالب بالدستور والاستقلال ، وهى فى هذا الهدف تتفق مع الحزب الوطنى ، وهو اتفاق طبيعى ، فحزب الأمة يريد الدستور ضمانا لعدم قيام الاستبداد الفردى ، واعتمادا على ما لأعضائه من نفوذ فى قراهم ودوائرهم ، قد يكسب لهم التأييد فى الانتخابات .

ثم ان الحزب جمع صفوة ممن تلقوا ثقافة غربية وفرنسية على الأخص — فهم من هذه الناحية متشبعون نظم الحكم الحديثة المعروفة فى العالم المتحضر حينئذ ، رغما عن عدم تأكدهم من صلاحية النظم حين تطبيقها ،

وهى الدستور والنظام البرلمانى ، أما الحزب الوطنى فهو يريد الدستور لأنه يمثل القوى الشعبية الغالبة .

وكان كلا من الحزبين « الأمة والحزب الوطنى » يطالب بالاستقلال الا أن مفهوم الكلمة عند الحـــزبين يختلف اختلافا بينا ، فهو عند حزب الأمة الاستقلال السياسى القــائم على تــكوين الأمة المصرية كشعب له مقــوماته وتاريخه ومثله وتقاليده الخاصة دون اعتماد على فــكرة دينية أو تبعية للخلافة أو ما عداها ، بينما كان الحزب الوطنى (حسب ظنهم) يربط بين الاستقلال وبين التشيع لدولة الخلافة ، ويلون كلامه وبحثه فى شئون الدستور والحـــكم ومستقبل الوطن المصرى بالمثل والأفـــكار والاتجاهات الاسلامية ــ وهذا لا يضير الحزب الوطنى طبعا .. لأن مبادىء الدين الاسلامى الحنيف حقيقة فى بؤرة الشعور المصرى .

ومن هذا الاختلاف فى وجهات النظر ، نشأت خلافات اخرى كثيرة منها أن الحزب الوطنى كان يدعو الى الجامعة الاسلامية وكان حزب الأمة يدعو الى الاستقلال المصرى ، وكان الحزب الوطنى يدعو الى معاونة الدولة العثمانية والأعتماد عليها ، بينما كان حزب الأمة يدعو أولا وقبل كل شىء الى الاهتمام بالمشاكل المصرية وعــدم الاعتماد على أحد فى الحصول على الاســـــتقلال سوى جهــد الأمة واستعدادها للبذل والتضحية .

ومن هنا يستبين لنا الخطأ الجسيم فى فهم الخطــة السياسية التى خطها مصطفى كامل ، فقد قصد رحمه الله الاستعانة بالخلافة العثمانية وسيلة لا غاية ، بينما فهم رجال حزب الأمة ــ خطأ أم صواب ــ أن ــ الوسيلة غاية ، وأن مصطفى كامل لا يستعين بالخلافة العثمانية

فحسب بل سيؤدى فى النهاية الى وقوع البلاد مرة أخرى فى أحضان الاحتلال العثمانى بعد خلاصها من الاحتلال البريطـــــانى .. !! ؟؟ والملاحظ أيضـا أن « الجريدة » لم تكن قاسية الوطأة فى محاربة الاحتلال على نحو ما كانت جريدة « اللواء » لسان الحزب الوطنى، وليس معنى ذلك انها كانت راضية عن كل تصرفاته أو مؤيدة له .

ولم تكن « الجريدة » بكتاباتها وآرائها والقارئين لهـا أثيرة لدى جماهير الشعب بل كانت على النقيض من ذلك، مكروهة بغيضة هدفا لكل اتهـام ونقيصة وانحراف ، أيسرها انها تمالىء المحتل وانها تكفر بالدين .

وكانت جمهرة الشعب تظـــــاهر جريدة « اللواء » ومحررها مصطفى كامل وتتحمس له تحمسا بالغا .

ثم جاءت حادثة دنشواى سنة ١٩٠٦ لطخة عار فى جبين الاحتلال ووقائعها معروفة ، ووجد مصطفى كامل فيها فرصة فريدة ، فشنها حربا قاسية على الاحتلال .

وأثمرت صيحته العـــالية ، وصرخته المدوية ، على ضراوة ما كان الاســتعمار حينئـــذ فى مصر وغيرها ، واضطرت انجـــلترا ازاء موجة الاستياء التى عمت فى انحــاء العالم المتحضر ، أن تخلع حاكمهـــا المتغطرس اللورد كرومر من منصبه على الرغم من النجاح الكبير الذى سجله فى مصر من وجهة النظر الاستعمارية وكان رحيل كرومر عن مصر منــاسبة لقيـــام جدل عنيف بين القوى المتصـــارعة على المسرح حينئـــذ ، فاختلفت فى تقديره ووداعه ، وأخـــذ على المرحـــوم لطفى السيد انه أجزل له الثناء ولم ينتقـــد حـكمه الا على

استحياء ، وأخذ عليه وعلى غيره انهم اشتركوا فى تكريمه أو دعواه ، وكان أولى به وبغيره أن يقاطعوا أى فكرة لتكريمه وتوديعه بعدما فعله فى البلاد ، فكان رده عليهم بأن سياسة المسالمة بين المصريين والانجليز تدعو الى هذه المجاملة لأن سياسة المعاندة عقيمة ؟ وان ليس أجدى من سياسة المسالمة والمحاسنة المقرونة بالمحاسبة .

وخاصم مصطفى كامل جميع من ودعوا اللورد كرومر واعتبرهم مارقين على الوطن ومارقين على الوطنية ، اذ كيف يستقيم أن يكرم الوطنى ممثل الاحتلال فى بلاده ، يودعه لنقله من منصبه ، وكأن هذا النقل بأسباب جريمة شنيعة ارتكبت ضد الوطن .

ورغم هذه الخصومة بين لطفى السيد ومصطفى كامل فى أسلوب الجهاد السياسى لكل منهما والاختلاف البين بينهما ، ونقده لسياسة لطفى السيد وحزب الأمة فقد رثاه لطفى السيد حين موته أبلغ رثاء ، ودعا الأمة بعد وفاته لاقامة تمثال تخليدا لذكراه ، وقال عنه فى مذكراته ما يأتى :

« لا أريد أن أطيل القول فى مصطفى كامل ، فحياته معروفة مشهورة ، ولكنى أقول موجزا :

« ان مصطفى كامل كان شعاره الوطنية ، وحياته الوطنية ، وغرضه الوطنية ، وكلماته الوطنية ، حتى لبسها ولبسته فصار بينهما التلازم الذهنى والعرقى ، فاذا ذكرت مصطفى كامل بخير فانما تطرى الوطنية ، واذا قلت الوطنية فان أول ما تتمثل فى خيالك شخص مصطفى كامل كأنما هو والوطنية شىء واحد .

ولقد تمثل ذلك يوم وفاته فى هذه المظاهرة التى لم

يعرف لها فى ذلك الزمان مثيلا ، فقد اشترك جميع أفراد الأمة فى أمر واحد ، وعلى رأى واحد ، بصورة واحدة ، مع اختلافهم فيما عداه .

كل ذلك دل على أن الشعور الذى قادهم ليس مذهبا سياسيا ، ولا طريقا من طرائق المنازعة السياسية ، بل هو أعلى من ذلك ، وهو التضامن القومى والجامعة الوطنية .

ان مصطفى كامل كان مثال الوطنية ، ولقد دعوت فى اليوم التالى لوفاته على صفحات الجريدة ، الى اقامة تمثال له يشهد له بالاعتداد بفضله فى عمله وتخليدا لذكراه واعترافا من الأمة لكل عامل يقف نفسه على خدمتها ، ويجسد لهذه الخدمة كيانه وتفكيره » .

رائد التأليف السياسى

يعتبر مصطفى كامل أول زعيم سياسى فى الشرق اهتم بغرس الروح الوطنى فى نفوس المواطنين عن طريق تأليف الكتب الوطنية ، التى تشرح حقائق المسائل السياسية المعاصرة وارتباطها بقضية الوطن وفيما يلى ما أصدر من مؤلفات :

١ ـ « المسألة الشرقية » صدر فى ابريل سنة ١٨٩٨ ، شرح فيه تطور المسألة الشرقية وبيان حوادثها فى القرن الـ ١٨ ثم القرن ١٩ ، مستطردا الى ذكر استقلال اليونان ثم قضية سوريا بين محمد على وتركيا وحرب القرم ومؤتمر برلين ثم شرح القضية المصرية بجلاء ، ثم القضايا البلغارية واليونانية .

ويعد هذا أول كتاب سياسى أصدره زعيم فى الشرق .

٢ ـ رسالة موجزة باللغة الفرنسية عن « اخطار الاحتلال البريطانى سبق ذكرها فى بيان نشاطه فى العام الأول من الجهاد الوطنى ، نشرها فى ١٨٩٥/٨/٨ ، وتنبأ فيها بالمشكلة الفلسطينية وفصل السودان عن مصر قبل حدوثها بأكثر من نصف قرن .

٣ ـ كتاب الشمس المشرقة صدر فى يونيو سنة ١٩٠٤ وضع لمناسبة الحرب الروسية اليابانية وما ظهر فيهما من عظمة اليابان التى بهرت العالم بتقدمها ووطنيتها ، وقصد منه حث الأمة المصرية على الاقتداء باليابان فى نهضتها العظيمة (كان ينوى زيارة اليابان سنة ١٩٠٨ لدراسة شئونها على الطبيعة ولكن الموت لم يمهله) .

٤ ـ المصريون والانجليز .

جمع مصطفى كامل فى صيف سنة ١٩٠٥ خطبه التى ألقاها عن المسألة المصرية والرسائل التى تبودلت بينه وبين كبار الساسة وترجمها الى الفرنسية وطبعها بباريس وظهرت كتابا فى ديسمبر سنة ١٩٠٥ فى ٣٢٠ صفحة ثم وزعه فى كل جهات العالم لتعريف العالم بالحركة الوطنية فى مصر وتطوراتها وشرح اهداف الحزب الوطنى فكان خير دعاية عالمية للقضية المصرية وقد وضعت مدام جولييت آدم مقدمة لهذا الكتاب وفيما قالته عن مصطفى كامل « انه يجاهد بكل الصور والأشكال ضد اليأس والقنوط وعدم الاكتراث بشئون البلاد (وقلة الوطنية) . تلك الآفات الثلاث التى تتهدد مصر كما تتهدد فرنسا نفسها ، والتى هى أشد خطرا على الأمم من المغيرين .

٥ ـ وضع فى ديسمبر سنة ١٨٩٣ مسرحية « فتح الأندلس » وهى رواية وطنية ضمنها حوادث فتح العرب للأندلس وأظهر فيها فضائل الصدق والأمانة والثبات وقصد بها تربية الأمة على الفضائل الوطنية وطبعت فى حياته .

أثره في الشعر العربي

كان لظهور الدعوة الوطنية التي بثها مصطفى كامل أثر كبير في تطور الشعر العربي في مصر واتجاهه الى الناحية القومية التي لم يطرقها الشعراء من قبل ، وظهر ذلك جليا في قصائد جميع الشعراء المعاصرين له ، فان قرائحهم بتأثير دعوته وأحداث حياته ، وكفاحه المنيف ، ووقفاته المشهورة ازاء الظروف السياسية التي مر بها في طريق جهاده ، قد فاضت بالشعر الوطني ، وسارت النهضة الأدبية الى جانب النهضة الوطنية تعتز بهـا وتؤيدها وتسجل حوادثها ، وتعبر عن آلامها وآمالها ، وليس ادل على ذلك من قصائد حافظ ابراهيم وأحمد شوقي واسماعيل صبري بعد موقف مصطفى كامل من حادثة دنشواي ، وقصائد حافظ ابراهيم في شكوى الاحتلال ، وبعد استقالة اللورد كرومر ، وفي حفلة مدرسة مصطفى كامل وقصائد صديقه الحميم خليل بك مطران شاعر القطرين ، ولما مات مصطفى كامل كانت الفجيعة في فقده حدثا تاريخيا من أعمق الاحداث في تاريخ البلاد في أوائل القرن العشرين ، فتبارى الشعراء في رثاء الزعيم الشاب وجادت قرائحهم وملكاتهم الشعرية بأخلد المراثي التي قيلت في الشعر العربي

الحديث ، وكانت سيرة حيـاته وكفـاحه أكبر مصدر لالهامهم .

وظل الشعراء يخلدون مجدهم الأدبى والفنى (فى شبه مباراة بينهم) بانتاج أعظم مراثيهم كلمـا اقبلت ذكراه ، على توالى الأعـوام والأيـام ، حتى انقضى عهد اقطاب الشعر الحديث شوقى وحافظ ومطران .

وكيف لا يخلدون مجدهم برثاء مصطفى وقد كتب الى صديقه محمد فريد من بودابست فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٨٩٨ ردا على من كانوا ينكرون عليه فائدة عمله .

(لكنهم جهلوا ان لى روحا هى من نور الحريةالساطعة، لا تستطيع الحياة فى ظلمات الظلم والاستبداد ، جهلوا ان روحى تنادى الى يوم الممات ما شاكلها من الأرواح الشريفة لتتحد معها على القيام بهـذا العمل الشرعى الحق) وكيف لا تجود القرائح ! مهما ضن معينها ، بمن فكر فى مصير بلاده وحرية أهلها ، حتى آخر نسمة من حياته وهو قاب قوسين أو أدنى من الموت ؟!

لذلك كانت القصائد التى رثى بها من أخلد صفحات الشعر العربى فى العصر الحديث وبلغت بعض الأبيات منها ، من الشهرة ما جعلها تجرى مجرى الأمثال ، وتروى فى الأحاذيث والخطب فى كل زمان ومكان .

مصطفى كامل رائد الخطـابة السياسية فى الشرق العربى :

فى السنوات العشر الأولى للاحتـلال ، خفت صوت الخطابة الذى كان قد بدأ يعلو منتعشا فى فترة الثورة

العرابية ، وحين بدأت الحركة الوطنية تعود الى اليقظة وتتخذ سبيل النضال ، كانت الخطابة من أهم أسلحتها فى هذا السبيل ، وقد تعددت المجالات وتنوعت الميادين التى منحت الخطابة الانتعاش ثم النشاط ، حتى شهدت تلك الفترة طائفة كانوا من أعظم من عرف تاريخ الأدب الحديث من خطباء كما حظى التراث الأدبى بجمهرة من أروع ما ضم هذا التراث من خطب .

وكان من أهم مجالات الخطابة ، المجـــال السياسى والمجال القضائى والمجال الاجتماعى أما المجال السياسى فكان له ميـدانان : ميـدان رسمى يتمثل فى الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين ثم الجمعية التشريعية بعد ذلك ، ومجـــال غير رسمى يتمثـل فى الأحزاب والهيئات السياسية التى كانت تناضل لتحقيق ما ترى انه خير للبلاد وقد كان أهم هذه الهيئات السياسية غير الرسمية الحزب الوطنى وحزب الأمة .

وليس من شك فى ان زعماء الحزب الوطنى قد كانوا فى تلك الفترة ، أكثر جنود هذا اللون من ألوان النضال حماسة وأقواهم شكيمة ، ويأتى فى مقدمة هؤلاء جميعا الزعيم الوطنى مصطفى كامل ، الذى يعد من الاعلام فى الخطابة السياسية فى التاريخ الأدبى ، فقد كانت مواهبه الخطابية المبكرة خير أسلحته فى اجتذاب الجماهير حوله وكسب تأييدها لدعوته وكان من أهم مظاهرها : التحمس الشديد والتدفق المنساب ، والقدرة البالغة على تحريك مشاعر الآلاف من المواطنين والهاب عواطف السامعين ، ثم المهارة فى تفنيد حجج الخصوم وتدعيم الرأى الذى يدعو اليه بمزيج من الأدلة العقلية والمؤثرات العاطفية .

وكان لا يدع فرصة الا انتهزها للتشهير بالاحتـــلال وجرائمه ، ثم للمطالبة الحارة بالجلاء والدستور وتحقيق آمال البلاد .

وقد كانت الخطابة من أهم عوامل نجـــاح مصطفى كامل ، بل أصبحت تشكل جزءا من شخصيته كزعيم ومن يومها ارتبط النجاح السياسى بالنجاح فى الخطابه والقدرة عليها ، واصبحنا نرى جل الزعماء الكبار يهتمون بالخطابة ويتخذون منها وسيلة فعالة من وسائل النجاح.

مميزاته الخطابية

لم يكن يرتجل خطبه ، كما انه لم يكن يقرأها ، بل كان يسكب على الورقة عصارة ذهنه وأهم أفكاره ثم يختزنها جميعا فى ذاكرته ، حتى اذا ما اعتلى المنبر كان مالكا لموضوعه ، مسايرا طبيعته ، مطلقا عبقريته ليعبر عما يجول فى أعماق نفسه .

كان يسيطر على الجماهير لمجرد اتصاله بهـــا حتى يضمها تحت لوائه ، فالمكان الفسيح والهواء الطلق هو كل ما يحتاج اليه ويبعث فيه الحماس .

كان يصدع بكلمة الحق ويرددها حتى تنفـــذ الى قلوب السامعين ، فينقادوا وراءه . كان عقله هو الذى يتكلم . والعقل في غير حاجة الى زخرفة اللفظ ، بل فى حاجة الى الحجة الدامغة ، ولم تنقص مصطفى كامل الحجة ، لذلك كان يصل الى غرضه دون تمهيد أو لف أو دوران . كان لايبحث عن اقتناع الشعب ليطويه تحت لوائه فقط ، بل ليعلمه ويثقفه . كان يعرض رأيه ويدعمه بالبراهين القوية .

مصطفى كامل
يتنبأ بمشكلة فلسطين

لقد أثار اليهود مسألة الصهيونية والوطن القومى ، لأول مرة فى « هوايت هول » ومجلس العموم البريطانى حوالى سنة ١٩١٧ ، فرأى الانجليز أن ينتفعوا بما لهؤلاء من مال ونفوذ فى العالم ، ليقهروا ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى .

وكان قوام الدعاية لقضية الحلفاء يومئذ اللورد نورثكليف ، وقد اتخذ اذ ذاك سويسرا مقرا له ، فأدت هذه الدعاية الى تألب اليهود على حكومتهم الوطنية فى أثناء تلك الحرب .

ولسنا نجاوز موضوعنا ، اذا قلنا أن هذه الحركة كانت السبب الرئيسى فى نقمة الألمان المسيحيين من الألمان الاسرائيليين ، واليهـا يرجع كل ما نالهم بعد ذلك من تشتيت ، فكأنما كانت بريطانيا سبب نكبتهم . وهنا نسأل ماذا كان موقف فلسطين الشهيدة : وهى التى لبثت الى ذلك التاريخ بعيدة عن هذه المصائب ؟ لقد خدع أهلها بما خدع به أكثر العرب فى مصر وسوريا والعراق من بريق الوعود الرسمية والشبيهة بالرسمية ، من الأمانى العالية ثم جاء وعد بلفور فكان حلقة ثانية فى الدعاية البريطانية وخطوة أولى فى سبيل الاستعمار

البريطانى ، وما لم يكن بد من ضحية فلتكن هى فلسطين لأنها لا تكلف انجلترا شيئا .

ومع أنه لم يكن للصهيونية أثر فى الشرق قبل ذلك ، فانها لم تكن وما يشبه الهمس ، بين غلاة دعاتها حتى تبنتها السياسة البريطانية فخلقت منها مشكلة معقدة فى الشرق الأدنى .

ولقد عاش اليهود فى فلسطين قبل هـذه الخطوة ، كما عاشوا فى غيرها على آهنأ ما يكونون ، فلما سيطرت انجلترا على تلك البلاد المقدسة باحتلالها أوغرت صدور المسلمين فى جميع أنحاء العالم بتشجيعها اليهود ، كما أوغرت صدور الفلسطينيين بهـذا الاحتـلال الأجنبى البغيض الذى ظلت تتظاهر فيه للعرب تارة ولليهود تارة أخرى حسبما تقتضيه الصوالح الاستعمارية .

على ان السياسة الانجليزية لم تقف عند هذا الحد ، فانها لم يكفها أن تحتل تلك البلاد وأن تتبنى الصهيونية علانية وبتصريحات رسمية ، وأن تجعل جيشها عونا على تثبيت قدمهـا ، بل قيل ان أول حاكم انجليزى لمدينة القدس كان يتدخل تدخلا شخصيا ، مستعينا باجادته للغة العربية وبماضيه الطويل ببلاد الشرق — فى شراء الأراضى من العرب الذين أجهدتهم الحرب وأرهقتهم الأزمة المالية (مسلمين ومسيحيين) ثم يتضح فى كل صفقة أنها تشترى لأفراد من الصهيونيين أو الجماعات منهم وهكذا استمر تعضيد انجلترا لليهود حتى عام ١٩٤٨ حين أعلن انشاء دولة اسرائيل .

وقد نشر المرحوم مصطفى كامل باشا رسـالة صغيرة فى أغسطس ١٨٩٥ عن نتائج احتلال انجلترا لمصر سماها

« اخطار الاحتلال البريطانى » نبه فيها العالم الى خفايا السياسة البريطانية وكانت باللغة الفرنسية وكان مما جاء فيها :

« ان الانجليز اذا تركوا يحتلون مصر كما هم اليوم ، سيعملون على فصل جزء من الوطن وهو السودان ويعملون على امتلاكه ليحققوا حلم سيسيل رود بخلق امبراطورية افريقية كما انهم سوف يتجهون من موانى السويس وسواكن الى الأراضى المقدسة فيثيرون قبائلها، وهم هم الذين يتظاهرون بالمحافظة على العهود القديمة بصون الامبراطورية العثمانية ويتذرعون بالدسائس والوعود البراقة ، ولن يقفوا عند هذا الحد بل سيتطلعون الى فلسطين والأراضى المقدسة ويغزونها من مصر » .

ولقد كانت هذه الرسالة التى لم يعوزها المنطق ، محل تقدير الذين قرأوها ، أما الآن فلا يملك المرء الا القول بأن فقيد الشرق العظيم كان يكاد يطالع الغيب .

ففى أقل من نصف قرن فصل السودان ثم قسم الى شمالى وجنوبى ثم قيل ان السودان يخاف مصر وأن مصر تريد أن تستعمر السودان ، وهكذا انقلب الانجليز الغاصبون سودانيين وأخيرا تم استقلال السودان وانفصاله نهائيا عن وطنه الأم بفضل دسائس الانجليز أما قضية فلسطين فلا زلنا نكافح ويكافح معنا كل ذى قلب أبى وروح حر فى سبيل استرداد حقوقه ، واستكمال كيانه واستقلاله وحصوله على حريته السليبة من براثن الاحتلال الاسرائيلى .

وقد طبع مصطفى كامل هذه الرسالة وبعث بها الى جميع رجال السياسة والصحف الشهيرة فى أوروبا ،

فكان لها دوى كبير وجاءه نحو مائة خطاب من مشاهير السياسيين فى فرنسا وغيرها يعلنون شكرهم وتهنئتهم .

كما كانت هذه الرسالة الخـــالدة مثار اعجـاب الصحفية الكبيرة مدام جولييت آدم حينما أرسل اليها اول خطاب للتعارف وأرفق به نسخة منها . قالت تصف اثر هذه الرسالة فى نفسها :

« أعجبتني كثيرا هذه الرســالة (أخطار الاحتــلال البريطانى) فانشأت فى الخامس عشر من شهر سبتمبر سنة ١٨٩٥ مقالة عنها ، واقتبست منها أسانيد جديدة فى المسألة المصرية ، وقد سبق لى الخوض فيها كثيرا ، واثنيت على المؤلف فى مقالتى » .

يرفض تشكيل وزارة :

من اشهر الخطب السياسية لمصطفى كامل تلك الخطبة التى القاها فى فندق كارلتون عقب المأدبة الكبرى التى دعا اليها لفيفا كبيرا من النواب والكتاب والصحفيين ورجال الرأى فى انجلترا وذلك فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٠٦ احتجاجا على حكم المحكمة المخصوصة فى مأساة دنشواى وكانت هذه الخطبة احدى خطبه التى هزت المجتمع البريطانى وزعزعت مركز اللورد كرومر ، وقد رفض فى هذه الخطبة الاتهامات والادعاءات المغرضة التى يقيمها الاحتلال ضد المصريين وأولها التعصب الدينى ، ثم تناول ســياسة الانجليز فى السودان وانتقد شغل الوظائف القيـــادية الـــكبرى بالبلاد بالانجليز ، وهيمنة اللورد كرومر على الجهـــاز الادارى بالدولة وتقييده لسلطة الوزراء ، ثم انتقد السياسة التعليمية التى يتبعها الاحتلال من حرمان

الفقراء من التعليم والاهتمام بنشر اللغة الانجليزية أكثر من العناية باللغة العربية ، ومن انشائه جيلا من الطلاب يكون أداة المستعمر فى حكم البلاد ، واهماله مواد التاريخ والفلسفة والعلوم الانسانية التي تعمل علي تقويم النشء قوميا ومعنويا ، وقال : ان الوطنيين يعملون على تعويض النقص فى التعليم بانشاء المدارس الأهلية ذات البرامج القومية .. ثم انتقد المحكمة المخصوصة التى أثارت المصريين بقراراتها الأخيرة وفى هذا الموضوع قال : ان من أقبح الأمور وجود محكمة لا قانون لها ولا تعرف الاستئناف أو العفو فى بلد متمدن يعتبر من الناحية الفكرية جزءا من أوروبا — ان وجود هذه المحكمة سبة للقانون والعدالة والشعب الانجليزى .

ان من واجب انجلترا الغاء مثل هذه المحكمة . ان العالم أجمع استمع عدة مرات الى أصواتكم وهى تدافع عن الانسانية وعن المدنية ، انكم عارضتم بكل قواكم الحيف والظلم الذى يقع على الشعوب الأخرى ، فمن واجبكم ان تعارضوا اليوم الظلم المنتشر فى مصر باسمكم .

هل من العدل محاكمة ٢١ شخصا بالشنق والأشغال الشاقة والجلد من أجل وفاة انجليزى واحد عرضا واصابة آخر بجرح ؟؟

انى أطالب باسم أصدقاء العدالة الحقيقيين وأصدقاء الانسانية اعادة النظر فى قضية دنشواى أمام مستشارين مستقلين » .

وأخيرا تناول مصطفى كامل قضية الدستور الذى يطالب

به المصريون منذ أربعة وعشرين عاما ، باعتباره الطريق لضمان العدالة وحرية الرأى وحسن سير الأمور .. الى ان قال :

« ان ثروات العالم جميعا لا تنسينا اطلاقا كرامتنا وحقوقنا ، ولقد كان من مصلحة انجلترا أن تتقدم مصر ماليا لتنال ثقة حملة سندات الدين المصرى ولتستطيع فتح السودان وتعميره ولكنها لم تنفذ التعهدات التى أخذتها على نفسها حتى بشأن تقدم المستوى الثقافى للشعب » .

ثم أعلن فى نهاية خطبته « ان مصر لا تسأل احسانا بمطالبتها بحريتها ، بل تطلب حقا معترفا به ولا نزاع فيه ، تطلب حقها فى الحياة ، وانى لواثق من انكم لو كنتم محلنا لشعرتم بنفس شعورنا ولسلكتم مسلكنا لأنه لا يوجد الا مطلب واحد خليق بأن يشغل حياة الانسان الا وهو الاستقلال وعظمة الوطن » .

وقد علق المستر روبرتسن ، من النواب الأحرار على خطبته بكلمات كلها تأييد وميل وعطف على قضية مصر .

وأرسل الى مدام جولييت آدم بتفاصيل هذه الوليمة ونص الخطبة ، وردود الفعل التى يتوقع حدوثها بعد نشر هذه الخطبة على الرأى العام وتقول مدام جولييت آدم فى كتابها « انجلترا فى مصر » :

« ان سير كامبل بانرمان رئيس وزراء انجلترا طلب مقابلة مصطفى كامل بعد اطلاعه على الخطبة التى ألقاها فى فندق كارلتون ، وتمت المقابلة بين الرجلين فى داونتج ستريت » .

وصرح خلالها الزعيم المصرى الشاب لرئيس الوزراء قائلا : « أرجو أن تكون قد لمست الآن كيف نال عمالكم فى مصر من شرف انجلترا بتلويثهم العدالة » . واقتنع كامبل بانرمان بمأساة دنشواى واعترف بأنهـــا حادثة مؤسفة ، ولكنه استنادا على ادعاءات اللورد كرومر قال لمصطفى كامل بانه لا يظن ان فى مصر رجالا يستطيعون ادارة البلاد ، فرد عليه قائلا : اسمح لى ان أقول أن اللورد كرومر يصرف الأمور فى البلاد لصالح انجلترا وحـدها وأنه يحكم مصر منـذ ١١ عاما بمساعدة وزارة مصطفى فهمى باشا صديق انجلترا ، وهذه الوزارة مكروهة من المصريين المخلصين اوطنهم وللعدالة » . فقال له الرئيس البريطانى : هل تقبل تكوين نظارة بمعرفتك ؟

فرد عليه مصطفى كامل على الفور : ان وطنيتى تفرض على رفض كل مركز فى الحكومة طالما ظل الاحتلال فى البلاد ثم أضاف : « واسمح لى أن أتكلم فىمسألةالجلاء» فقاطعه الرئيس البريطانى قائلا : « أظن أنه لابد من اعداد المصريين أولا للنظام النيابى ومتى تم هذا الاعداد فعلا فسنحقق أمانيكم بشأن الاستقلال » .

— كنا دائما خليقين بالاستقلال التام .

— هل تقبلون الانفصال عن تركيا ؟

— ان بلادنا تطمع فى التمتع بالســيادة الـكاملة فى الداخل والخارج ، وعلى اثر هذه المقابلة ، سلم مصطفى كامل لسير هنرى كامبل بانرمان قائمة تشتمل على اثنين وثلاثين من أسماء أصدقائه وأعوانه الذين يستطيعون تكوين نظارة قومية . وكان بين الأسماء سعد زغلول ، أحد مستشارى محكمة الاستئناف، ويقول مصطفى كامل

فى خطاب أرسله الى مدام جولييت آدم :

« يلوح لى أن سير « بانرمان » كان مخلصا فى حديثه معى بشأن استقلال مصر ، ان سعد زغلول من ألمع مستشارى محكمة الاستئناف ولقد وضعت اسمه فى القائمة التى سلمتها لسير بانرمان ولديك نسخة منها ، فاختار اللورد كرومر لسعد زغلول من بين الاثنين والثلاثين اسما التى ذكرتها ربما يكون القصد منه الأمل فى ضم سعد زغلول الى سياسته حيث أنه متزوج من ابنة ناظر النظار ، والمستقبل كفيل بأن يحكم بأنى قمت بواجبى » .

ينقذ عرش عباس حلمى

فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٠٦ ، كون مصطفى كامل شركة مصرية برأس مال قدره ٢٠٫٠٠٠ جنيه لاصدار جريدتين يوميتين احداهما باللغة الفرنسية والأخرى باللغة الانجليزية .

وفى هذه الأثناء قام نزاع بين الانجليز والخديو لعدة أسباب منها أنه أيد تركيا فى حادثة طابا واستنكر الحكم الصادر من المحكمة المخصوصة فى حادث دنشواى ، ورفض حضور الحفلة التى أقيمت يوم ٩ نوفمبر سنة ١٩٠٦ لذكرى مولد ملك انجلترا ، واشتد الغيظ باللورد كرومر وقابل الخديو عباس فى ٢٩ نوفمبر واتهمه بالمساعدة المالية للصحيفتين اللتين سيصدرهما مصطفى كامل ، واحتج الخديو معلنا بطلان هذه التهمة من أساسها أما مصطفى كامل فقد رد على فرية كرومر والصحافة المأجورة بنشر أسماء المساهمين فى الشركة المذكورة

والمبالغ التي ساهم بها كل منهم .

وفي أول ديسمبر كتب مصطفي كامل الي مدام جولييت آدم يقول :

« ان مسألة هامة تضطرني الي السفر الي انجلترا في مدي أسبوع وسأكلمك عنها في باريس .. ان اللورد كرومر مستاء جدا من جهودي ويحاول بكل الطرق عرقلة أعمالي ولكني واثق من النصر لأن العدل والحق في جانبنا » .

وفي ١٥ ديسمبر سنة ١٩٠٦ وصل مصطفي كامل الي العاصمة الفرنسية بصحبة محمد فريد وذهب لزيارة مدام جولييت آدم واخبرها أن مراسله في لندن أرسل اليه كتابا يعرفه فيه بأن اللورد كرومر الح على حكومته بمطالبة السلطان بعزل الخديو ، بدعوى أنه دفع مصطفى كامل الى شن حملة شديدة ضد الانجليز عقب مأساة دنشواي ، وأن كرومر يعتقد أن الخديو أمد مصطفى كامل بأمواله لاصدار صحيفتيه الجديدتين ، لذلك كلف الخديو مصطفى كامل بالسفر الى انجلترا واحباط مناورة المعتمد البريطاني .

ذهب الي لندن في ١٩ ديسمبر ومكث فيها أياما ، ثم عاد الى باريس وزار مدام (١) جولييت آدم واخبرها بأنه قابل سير « كامبل بانرمان » وأنه نجح في افهامه بأن خلع الخديو سيؤدي الى اضطرابات في مصر ، كما سيخلق صعوبات جمة في وجه انجلترا ، وان مصلحة انجلترا اقصاء اللورد كرومر عن مصر لكره المصريين وبغضهم له . وهكذا نجح مصطفى كامل في انقاذ عرش حلمي .

لما عاد الى معسكر الوطنيين ، وواتته الشجاعة فاستنكر تصرفات الاحتلال واستهدف بعدها لانتقام اللورد كرومر ، وتقول مدام جولييت آدم عن مصطفى كامل عقب أسراره لها بهذا الحديث : أنه اصيب بداء عجيب ، وأشرفت حالته على الهلاك ، ولم يخف الطبيب المعالج وساوسه من أن يكون قد وضع له السم (١) فى الطعام أثناء تواجده بلندن ...

ثم تستأنف الكاتبة الكبيرة قائلة (٢) :

ورغم هذا ، فقد قام من فراش المرض ، رغم ما يعانيه من آلام ، وعاد الى مصر فى ٢٤ يناير سنة ١٩٠٧ لانجاز مشروعه الصحفى ، واصدار الجريدتين فى أقرب وقت » .

---

(١) فى الموال الشعبى الذى تغنى به أهالى دنشواى ، عقب المأساة ، وفى الاشاعات التى تناقلتها الجماهير فى كل أنحاء البلاد آنذاك ، ذكر لهذه الحقيقة ، وأن الانجليز دسوا السم لمصطفى كامل عقب نجاحه فى الافراج عن مسجونى دنشواى .

(٢) كتاب مصطفى كامل وكفاحه ـ دكتور أحمد راشد .

تأسيس الحزب الوطني

كانت كلمة « الوطنيون » تطلق منذ ظهور مصطفى كامل على مسرح السياسة على كل مواطن مصرى يطالب الاحتلال بالجلاء وبالاستقلال التام للبلاد ، وكانت هذه الكلمة تجرى على لسان الزعيم الشاب وتكتب فى الصحف المصرية والأجنبية . لم يكن هناك فى الواقع حزب وطنى بالمعنى القانونى ، ولكنه كان يمثل معارضة حية تناهض المحتل . وأمام حب الظهور لدى بعض المصريين وانتهازية البعض الآخر ممن كونوا حزبا جديدا كما أسلفنا ، سواء أكان ذلك للتفاهم مع المحتل أم للحلول محل أنصار مصطفى كامل ، عزم هذا الأخير على توطيد أركان الحزب الوطنى حتى يستطيع استئناف كفاحه وجهاده بهمة وعزم فى حالة وفاة زعيمه .

ولوح بهذا العزم فى مقاله الذى نشره فى ١٩٠٠/٧/٢، كما كتب فى اللواء فى ١٩٠٧/١٠/١٠ « أن الحزب الوطنى المصرى الذى جعل أول مراميه وأسمى غاياته استقلال مصر ورد حقوقها اليها ، موجود فيها فعلا من ثلاثة عشر عاما مضت ، فهو وان لم يظهر بشكل نظامى وبلائحة ولجنة ادارة ، فقد ظهر بأعمال اتفق أعضاؤه عليها لخدمة البلاد بكل قوة ، وقاوم الاحتلال

فى أوروبا ومصر مقاومة شهدها كل المصريين والغربيين، وارتبط بروابط كبيرة مع جملة من ساسة اوروبا » .

وفى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ ، خطب الزعيم المصرى داعيا مواطنيه الى الانضمام اليه ثم عرض البرنامج الذى اتفق على تحقيقه وهو كالآتى :

أ ــ منح مصر الحكم الذاتى أو استقلالها الداخلى طبقا لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ .

ب ــ اقامة حكومة دستورية يكون فيها الحكام مسئولين أمام برلمان منتخب .

جـ ــ احترام المعاهدات والاتفاقات المالية التى تتعهد فيها الحكومة المصرية بدفع ديونها .

د ــ نشر التعليم فى أنحاء البلاد ، ونشر المبادىء الدينية ، وحث الأغنياء على تأسيس الجامعات ، وارسال البعثات الى أوروبا وانشاء دراسة ليلية للعمال .

هـ ــ تنمية الزراعة والصناعة والتجارة وجميع مرافق الحياة الاجتماعية فى سبيل حصول البلاد على استقلالها الاقتصادى .

و ــ تقارب عنصرى الأمة : المسلمين والمسيحيين والوحدة المتينة بينهما .

ز ــ تحسين الأحوال الصحية لازدياد النسل القوى .

ح ــ تقوية روابط حسن التفاهم بين المصريين والأجانب المقيمين فى وادى النيل .

ط ــ تقوية العلاقات الودية بين تركيا ومصر من جهة ، وبين مصر والدول الأوروبية من جهة أخرى لاكتسابها الى جانبها .

وأنهى مصطفى كامل خطبته قائلا : « ضموا صفوفكم واجمعوا أمركم واعملوا بجد وأثبتوا للأعداء والأصدقاء أننا أحق الأمم بالدستور والاستقلال » .

وعلى أثر هذا النداء ، تقاطر الناس من كافة أنحاء البلاد لقيد أسمائهم فى الحزب الوطنى وعقدت الجمعية العمومية اجتماعها الأول فى مقر اللواء فى ٢٧ من ديسمبر سنة ١٩٠٧ ، شهده أكثر من الف مندوب ينتمون الى مختلف النقابات والمهن ، وألقى فيهم مصطفى كامل آخر خطبة فى حياته عبر فيهـــــا عن تفاؤله وعن السرور الذى يخالج نفسه لرؤية هذا العدد الضخم من المواطنين وشرح مرة أخرى أهداف الحزب ، وقام بعض المجتمعين بالقاء كلمات التأييد والتعبير عن تقديرهم لمصطفى كامل ثم قام فؤاد بك سليم وقرأ لائحة الحزب الوطنى المصرى وهى مكونة من ٢٤ مادة ، المادة الأولى فيهـا اختيار مصطفى كامل رئيسا للحزب مدى الحياة ، والمواد ١٠ ، ١١ ، ١٢ عن تكوين اللجنة الادارية من ثلاثين عضوا خلاف الرئيس ، والمادة ٢١ عن انشاء ناد يمكن أن تكون له فروع فى الأقاليم .

واجتمعت اللجنة الادارية اجتماعها الأول فى ٢ يناير سنة ١٩٠٨ واتخذت عدة قرارات منها شكر الخديو على الاعانة السنوية التى قررها من الأوقاف الخيرية لصالح الجامعة المصرية وقدرها ٥٠٠ جنيه ، طبع تقرير سنوى باللغات الفرنسية والعربية والانجليزية عن الحالة فى مصر .

زعيم المبادىء والتضحيات :

سيظل اسم مصطفى كامل علما للوطنية السامية ، المنزهة عن الأهواء والأغراض ومثالا للاخلاص الكامل للمبدأ الوطنى الحر . أما عن تضحياته فى سبيل وطنه فهذا أمر لا يجادل فيه أحد ، ولا يختلف فيه اثنان ؛ وتبدو روح التضحية فى تاريخه من السبيل الذى استنه فى حياته ، فهو لم يسلك طريق الراحة والرخاء ، والأبهة والجاه والغنى ، ونعنى به طريق المناصب ، ولو هو اختاره كما فعل معاصروه لبذهم جميعا بذكائه وكفاءته ونشاطه ، ولضمن لنفسه ولأهله وذويه ، طبقة بعد طبقة ، رغد العيش والثروة الطائلة والمراكز الممتازة ، ولكنه على نقيض ذلك ، اختار الطريق الوعر الخطر . طريق الجهاد والكفاح ، طريق الجهد والعرق والدم ، بل الطريق الذى استنفد قواه واستهلك حيويته واستنزف شبابه ، وأدى به الى الردى سريعا وهو لم يسلخ من عمره أكثر من أربعة وثلاثين ربيعا .. فضرب بذلك لكل مواطن حر ، أعظم مثل فى التضحية فى سبيل الله والوطن . بل فى سبيل حرية مصر وشعبها ، وفى ذلك يقول فى محاجة خصومه سنة ١٩٠٠ :

« يمكننى اليوم أن أقول أمام الملأ كله ، انه لا يستطيع انسان فى العالم أن يدعى أنى خالفت مبدءا من مبادئى لحظة واحدة ، مع تغير الظروف وتقلبات الأحوال ، وموت الآمال عند كثير من الرجال ، ولا يوجد من يقول انى عملت ما عملت طمعا فى عز أو ثروة ، لأن الطامع فيها لا يقف موقفى ، ولا يجاهد ضد الاحتلال تحت سماء مصر ، ولا يخطب ضد المحتلين حتى فى الوقت الذى كان فيه

أخي في قبضتهم ، يعاملونه بالذل والاستبداد ويذيقونه أنواع العذاب وصنوف البلاء ويهددونه بالموت والاعدام في كل آن » .

ولقد كانت جهوده الضخمة وآماله العظيمة أقوى مما تحتمل صحته البدنية فقد كان كثيرا ما يعتريها التعب والاعتلال من الجهد الذى حملهـا اياه ، وتدل رسائله الخاصة على أن صـحته كانت فى حاجة الى الراحة والعلاج قبل الوفاة بعدة سنوات ولكنه رغم ذلك مضى فى طريق النضال ، مستهينا بكل عقبة مهما كانت ، لا يبالي أن يحمل صحته ما لا تطيق من التعب والعناء .

كتب الى مدام جولييت آدم من فيشى فى ١٩٠٣/٩/٢٥ يقول :

« يجب أن أقضى معظم هذا الشهر فى (التيرول) مع صديقي فريديك الذى تشرفت بتعريفه اليك منذ سنتين، لأن الأطباء قد رأوا انه من الواجب أن أمضى فى الجبل بعض الزمن اذ أخذ التعب يستولى على أعصابى ولهم الحق فى ذلك فانى لم أشفق على نفسى » .

وكتب اليها فى ١٩٠٥/٦/٢٥ كتابا قال فيه :

« ان العمل قـد أضنانى الى حد أشـعر فيه بسرعة الحاجة الى ترك الوسط الذى أعيش فيه ، وكأن الطبيعة قـد خالفت سنتهـا ، اذ جعلت روحى أكبر من قـوة جسمى » .

وقد سافر في يوليو سنة ١٩٠٣ الى أوروبا وقصد الى لوزان وعرض نفسه على الدكتور بورجيه ليعالجه من مرض فى أمعائه كان يستبد به أحيانا فيعانى منه آلاما فظيعـة ، وفى صيف سنة ١٩٠٦ ذهب الى أوروبا

للاستشفاء والعلاج وكان فى حاجة قصوى الى الراحة ، ولكن حادثة دنشواى جعلته يغير برنامجـه الذى نظمه للعلاج والراحة ، وهب هبة الأسد صائلا ، باذلا جهودا جبارة لا تصدر الا عن اقوى الناس صحة وجسما ، ولما سافر الى باريس ولندن فى شتاء سنة ١٩٠٦ بصحبة محمد بك فريد لاختيار محـــررى جريدة ذى اجبشيان استاندرد وجريدة الاتندار اجبشيان عاوده المرض فى أثناء الرحلة واعتكف في الفراش بباريس عدة أيام ، عاد بعدها الى الجهاد والكفاح .

« ذكر المرحوم محمد فريد انه فى تلك المــدة عاده فيها الدكتور روبان الطبيب المشهور ونصح له بحضوره بعدم اجهاد قواه فى العمل ، وأن يترفق بصحته فـــلا يحملها فوق طاقتها من العناء ، ويترفق كذلك بامته فلا يحرمها وجوده ، حتى يتم مهمته التى وقف حيـــاته عليها . قال فريد بك :

« ولكن النصيحة أتت بعكس ما كنت أنتظره ، فانه رحمه الله لما احس يضعف قواه واســتعداده للأمراض الفتاكة ، أسرع الخطى وضاعف الجهــود ، فأتم معدات اللواءين الفرنسى والانجليزى حتى ظهـــرا فى مارس سنة ١٩٠٧ واستمر يجاهد ويبذل الجهود الجبارة طيلة سنة ١٩٠٧ . وبفضل هذه الجهود عظم اهتمام الراى العام فى اوروبا وانجلترا بالمسألة المصرية ، وظهر تيار من الاستنكار العام لسياسة الاحتلال فى مصر .

وفى صيف سنة ١٩٠٧ ذهب الى فرنسا كعـــادته للاستشفاء والجهاد ، وكانت هذه آخر رحلة له باوروبا ، وكان يشعر بدبيب العلة يسرى فى جسده ، ذكر المسيو

أدولف أدرير مراسل الاتندار في باريس انه قابله وقتئذ في باريس فكان يقول له :

« اني أشعر أن المرض قد دب الى ، ترى هل أعيش حتى رأى أول نجاح لجهودى ليحصد الآخرون نتائج جهادى ، ولكن ليكن لى وقت كاف للفرس والزرع » .

وكان هذا التصريح نذيرا بخطورة مرضه واحساسه الخفى بدنو نهايته . وقد قابله بعد ذلك فى شهر أغسطس فى افيان على بحيرة جنيف حيث قصدها للعلاج . وكان يلزمه أن يمكث بها واحدا وعشرين يوما للاستشفاء بحماماتها ، ولكنه لم يمكث غير عشرة أيام لشعوره بضعف مستمر فى قواه ، فسافر الى أعالى جبال سويسرا ، ولم يلبث بها غير بضعة أيام ، لأنه لم يكن يستريح أينما توجه ، وقال المسيو أدرير « وجاء شهر سبتمبر فعدت واياه الى باريس ولم أتركه حتى ساعة سفره ، وكان دائما متوعك الصحة فكنت أرى هذا الوجه الذى ترتسم عليه الشجاعة والذكاء والاقدام ممتقعا شاحبا ، وقد سافر منهوكا الى حيث لايعود الينا أبدا »'.

وقد عاد مصطفى كامل الى مصر فى أكتوبر سنة ١٩٠٧ فقابله الشعب بأعظم مظاهرة قام بها فى حياته ، وأخذ يبذل الجهود الجبارة لتنظيم صفوف الوطنيين ، وبناء الدعائم التأسيسية للحزب الوطنى . حتى اذا لم يكن فى عمره متسع لا يخشى عليه من الانحلال ، ألقى خطبته الشهيرة بالاسكندرية يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ وعلامات الضعف بادية على محياه ، وقد لمحها اصدقاؤه الأقربون .

واشتدت به العلة قبل وفاته بثلاثة أشهر ، ولكنه كان يغالب المرض ويصارعه ويجاهده بشجاعة معدومة

المثيل ، حتى انه لما حان موعد اجتماع الجمعية التأسيسية للحزب الوطنى يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ ترك سرير مرضه . ونزل الى ساحة دار اللواء حيث اجتمعت الجمعية العمومية ، والقى خطبته كأقدر وأقوى خطيب ، حتى انعقدت الدهشة على وجوه الحاضرين لبلاغته وقوة أدائه وبراعة القائه وقوة جنانه رغم ما به من آلام ، وكان هذا آية عظمته وقوة ايمانه بالله والوطن.

وكانت هذه آخر خطبة القاها رحمه الله ، ثم اشتد به المرض عقب الاجتماع وعاد الىغرفتهمريضاولم يغادرها.

وقد بلغه فى صباح اليوم التالى للاجتماع نبأ وفاة صديقه ونصيره الكبير لطيف باشا سليم أحد مؤسسى الحزب الوطنى وأحد أعلام الحرية الوطنية ، فجزع لوفاته . واشتدت عليه آثار العلة لحزنه عليه .

وكان وهو على سرير المرض لا يدع العمل والتفكير ، فقد أرسل وهو طريح الفراش قبل وفاته بخمسة أيام احتجاجا برقيا قويا ضد تصريحات فاه بها السير (١) ادوار جراى فى مجلس العموم البريطانى اتهم فيها المصريين بعدم الكفاية للحكم الذاتى ، فرد عليه بأن مصر تماثل فى الاستعداد للحكم الذاتى كثيرا من الأمم الأوروبية وأن مصر ستظل تجاهد فى سبيل حريتها واستقلالها حتى تنالها .

وقد زاره صديقه الشاعر الكبير المرحوم احمد شوقى بك فى غضون هذه الفترة وخلد ما شاهده من أحداثها الرهيبة ، وظروفها الخالدة فى ابيات من عيون الأدب والشعر ، يصور فيها آلام زائريه من انصاره وأصدقائه

(١) وزير خارجية بريطانيا فى ذاك الوقت .

وهم يغالبون دموعهم ، ويكتمون جزعهم عليه ، وهو يعمل بعزيمة لا تكل وارادة جبارة رغم ما يعالجه من سكرات الموت وساعات حياته الأخيرة :

ولقد نظرتك والردى بك محدق
والداء ملء معـــالم الجثمان
يبغى ويطغى والطبيب مضـــلل
قنط وســـاعات الرحيل دوانى
ونواظر العواد عنك آمالهـــــا
دمع تعالج كتمه وتعـــــانى
تملى وتكتب والمشـــاغل جمة
ويداك فى القـــرطاس ترتجفان
فهششت لى حتى كأنك عائدى
وأنا الذى هد الســـقام كيانى
ورأيت كيف تموت آساد الشرى
وعرفت كيف مصارع الشـجعان
ووجدت فى ذاك الخيال عزائما
ما للمنون يد كهن يــــــدان

وكان الزعيم قد سأله فى هذه الزيارة الأخيرة ، سؤالا فى غاية الغرابة : « يا شوقى بك قد دنا وقت منامى ، وستغرب الشمس قريبا فهل ترانى جديرا برثائك .. فدهش أمير الشعراء لما سمع ، وصمت ، وأخذ يدير عينيه ليغالب دمعه .. وتوارى بناظريه قليلا .. ثم تحول نحوه متصنعا الابتسام .. ورد عليه :

(عفوا يا باشا ، أتمنى أن لا يكون هذا منى أبدا فى حيـــاتى ، انك بحال حسنة ، وسوف ينعم الله عليك بكمال العافية والشفاء ، وتستعيد قـوتك وســلامتك

ونراك فى اهاب الصحة والجمـــال والقوة .. فعقب مصطفى كامل : « اذا أراد الله أمرا يا شوقى فسوف يقضى ، وانى شاعر بنهايتى » ...

قال شوقى يعتذر عن تأخره فى رثاء صديقه العظيم ، وعدم استطاعته أن ينظم مرثيته وقت وفـاته ، فقد نظمها يوم ٢٣ فبراير سنة ١٩٠٨ بعد وفاته ..

قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى
وتجل فـــوق النيرات مـــكانى

ماذا دهـــانى يوم بنت فعقنى
فيك القـــريض وخاننى امكانى

هون عليك فلا شـــمات لميت
ان المنيــة غاية الانســـان

وجعلت تسألنى الرثاء فهـــاكه
من أدمعى وسرائرى وجنـــانى

لولا مغالبة الشجون لخـــاطرى
لنظمت فيك يتيمـــة الأزمان

وأنا الذى أرثى الشموس اذا هوت
فتعود ســــيرتها من الدوران

ولقد كانت حياة مصطفى كامل الفريدة بين حيوات العظماء وعباقرة التاريخ ، ملهما لأمير الشعراء لينظم هذه الأبيات الخالدة مقارنا بين حياة الانسان الضئيلة الحقيرة يقضيها لغير ما غاية ولغير ما هـدف سوى أن يحياة كبقية الأحياء ، وفى ذلك يقول :

الناس جار فى الحيـــاة لغاية
ومضلل يجرى لغير عنـــان

والخد فى الدنيـــا وليس بهين
علیا المراتب لم تتح لجبـــان
فلو ان رسل الله قد جبنوا لما
ماتوا على دين ولا ايمـــان
المجد والشرف الرفيع صحيفة
جعلت لها الأخلاق كالعنــوان
وأحب من طول الحيـــاة بذلة
قصر بربك تقـــاصر الأقران
دقـــات قلب المرء قـــائلة له
ان الحيــــاة دقـائق وثوان
فارفع لنفسك بعـد موتك ذكرها
فالذكر للانســـان عمر ثانى
للمرء فى الدنيا وجم شئونهـــا
ما شـــاء من ربح ومن خسران
فهى الفضـــاء لراغب متضلع
وهى المضيق لمؤثر الســلوان

واختتم قصيدته الخالدة ، بهذه الأبيات :

يا صب مصر ويا شهيد غرامها
هـــذا ترى مصر فنـم بأمان
اخلع على مصر شبابك عاليـــا
والبس شباب الحـور والولدان
فلعل مصرا من شـــبابك ترتدى
مجـــدا تتيه به على البلدان
فلو أن بالهـــرمين من عزماته
بعض المضاء تحرك الهـــرمان
علمت شبان المدائن والقـــرى
كيف الحياة تـكون فى الشبان

وفـــاة مصطفى كامـــل

كتب فى آخر خطاب له لمدام جولييت آدم فى يناير سنة ١٩٠٧ :

« منــذ ١٧ نوفمبر وانا مريض جــدا ، ولقد بذلت مجهودا جبارا لألقى كلمتى فى الجمعية العمومية للحزب الوطني .. ان صحتى متهدمة حقا .. اذا تحسنت خلال خمسة عشر يوما فسأمضي شهرا فى أسوان » .

وفى ١٩٠٧/١/١٨ نشرت (ليتاندار) أخباره قائلة :

« ان نبأ وفاة لطيف باشا سليم أثر كثيرا فى صحته حتى انه لازم الفراش عدة أيام » .

ثم شفعت الجريدة كلامها بنشرة صحية عن سير المرض مؤكدة ان صحته تتحسن شيئا فشيئا وانه يستعيد قوته رويدا رويدا . (والحقيقة ان ما تقوله الجريدة ان هو الا ليبث الطمأنينة فى قلب أمة متجهة كلهـا نحو زعيمها وتتشوق لرؤياه) مهما يكن من الأمر فقد طلعت جريدة اللواء فى عدد ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ بالنبأ التالى :

« توفى الى رحمــة الله مديرنا العزيز مصطفى كامل باشا رئيس الحــــزب الوطنى المصرى فى تمام الساعة الرابعة من بعد ظهر أمس . لقد أصيب مديرنا باغماء فى

الصباح أقلق بالنا ، وحوالى الظهر لاح لنا أنه تحسن قليلا ، فاستأنفنا أعمالنا ، وقد كنا قطعناها فأنهيناها ، ولكن سرعان ما انتكس وخارت قواه تدريجيـــا ولفظ أنفاسه الأخيرة عندما كانت الساعة تدق الرابعة » .

انتشر النبأ الأليم فى أنحاء مصر والعالم ، وعم الحزن والأسى فى جميع الأرجاء ، وبكى الشعب الوفى رئيسه المحبوب مر البـــكاء ، وكرست جرائد مصطفى كامل الصادرة فى ١١ فبراير جميع صفحاتها ، لنعى الفقيد العظيم وكتب محمد فريد فى افتتاحية باسم الحزب :

« خسرت البلاد حامل لواء حركتها الوطنية ، ونهضتها العلمية والتحـررية مصطفى كامل باشا وهو فى ريعـان الشباب » .. الى أن قال « مات رئيسنا ولكن روحه ستظل معنا ، وسنكمل عمله الـذى بدأه الى ان نصل الى النهاية التى كان ينشدها وأعلن عنها فى رسائله وكتاباته أو خطبه فى مصر وأوروبا .. مات رئيسنا ، ولكن البذور التى زرعها استوت على سوقها وسيأتى اليوم الذى تحصد فيه البلاد ثمرها .. لن يترك الحزب الراية التى رفعها الفقيد عاليا وسنضاعف جهودنا لتقوية أواصر الاتحاد فى صفوفنا » .

ذكر المرحوم على فهمى كامل شقيقه الساعات الأخيرة قبل وفاته ، فى خطاب له الى مدام جولييت آدم بعثه اليها فى ٢٧ فبراير ١٩٠٨ (حيث أنه لم يستطع لفداحة الكارثة ان يكتب لها عقب وفاته مباشرة) واننا نقتطف من خطابه الطويل للصحفية الكبيرة هذه الفقرات :

« عانقته وقبلته فى الساعة التاسعة من مساء الأحد الموافق ٩ فبراير سنة ١٩٠٨ بعد ان حادثته ثلاث ساعات

وكان مليئا بالحيوية والسرور ، ثم تركته لأنام ، وفى صبيحة الاثنين دخلت غرفته كعادتى لأطمئن عليه ، فوجدته لا يزال نائما ، وبعد أن فضضت البريد ، ووزعت عمل صحف الألوية الثلاثة صعدت لأراه ، فوجدته فى صحة جيدة ، وشددت يده ، وأنا أسأله كيف مضى ليلته ، فأجابنى جوابا مرضيا ولكنى لاحظت أثناء الحديث ان لونه آخذ فى التغيير ، وعينه تغيب فملأت رعبا وسألته عما يؤلمه ، فأجابنى قائلا : « تشجع وامض فى عملك بحكمة للوصول الى غرضنا » وما نطق بهذه الجملة حتى غاب عن وعيه .. وظل مدة على هذه الحالة .. حتى سكت الى الأبد لقد تسلمت ١٣٣٣٤ برقية ، ٨٤٣٠ خطاب عزاء : ان الشبيبة شبانا وشابات أعلنوا الحداد اربعين يوما رغم معارضة المستشار الانجليزى لنظارة المعارف دنلوب ، ظن الانجليز أن المعارضة قد ماتت بموت مصطفى كامل ، ولكنى أؤكد لك يا سيدتى العزيزة ان العمل الذى أسسه أخى سيزدهر ، وأنه خدمنا حتى فى موته ، بارك الله فى وحدتنا ... يطلبون منى المبادرة بكتابة سيرة مصطفى كامل بالعربية ، ولهذا تجدينى شديد الرغبة فى أن أتلقى منك بعض بيانات عنه راجيا منك أن تكرسى بضعة أيام من وقتك فى سبيل ابنك الروحى » .

المأتم العظيم

منذ صباح يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ ، اخذت تتقاطر الجماهير الحزبية من كل حدب وصوب على دار اللواء وما حانت الساعة الثالثة بعد الظهر ، وهو الموعد

المقرر لبدء سير الجنـــازة حتى غصت بهم الدار على سعتها ، وامتلأت الساحات والشوارع المؤدية اليهـــا بالمشيعين الوافدين من جميع انحاء القطر ، وكان على رأس المشيعين كثير من الأعيان وأعضاء مجلس الشورى يتقدمهم رئيسهم وكبير التشريفاتية وياور الخـــديوى ورئيس الديوان العـــربى للخديو وناظر الحقانية وناظر الأشغال وشيخ الجامع الأزهر وقاضي القضاةوسكرتيرأول الصدر الأعظم ومدير مدرسة الحقـــوق الفرنسية ولفيف من المستشارين وكبار الموظفين .

ولما بدات الجنازة فى المسير ، تقدم المشهد كوكبـة من الجنود الفرسان ، فطلبة مدرسة مصطفى كامل ، فطلبة المدارس الابتدائية الأميرية والأهلية ، فطلبة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى فالمدارس الثـــانوية « التوفيقية ـ السعيدية ـ الخديوية » ثم المدارس العليا فالمدارس الثانوية الأهلية والأجنبية ثم عساكر البوليس وتلاميذ مدرسة الشرطة ثم نعش الزعيم ملفوفا بالراية المصرية ، محمـــولا على أعنـــاق الشباب من مدرسة الحقوق . ثم سار المشيعون خلف النعش يتقدمهم محمد فريد ، وكان عددهم فى بدء الجنازة يزيد على عشرات الآلاف ، الا أن ذلك الجمع الهائل لم يكن الا قطرة من بحر ممن انضم الىالجنازة اثناء سيرها ، حتى زخرت الشـــوارع بالمشيعين ، ولمـــا تعذر سير الجنازة ، وقف معظمهم على جانبى الشوارع .

وبلغ عـــدد المشيعين ربع مليون نسمة ، هذا عدا الالوف الذين اصطفوا على جانبى الطريق من دار اللواء الى مدافن الامام الشافعى والمطلين من نوافذ المنـــازل

والفنادق وشرفاتها وفـــوق أسطحتها وفى المنعطفات المترامية الأطراف ، وجماع القول أن الشوارع الواقعة من دار اللواء فى شارع الدواوين وقبر الفقيد كانت العين لا تقع فيها الا على اجسام متزاصـــة من المشيعين ومع اشتداد هذا الزحام الذى لم يسبق له نظير فى تاريخ مصر ، كان النظام مستتبا ، والسكون شاملا رهيبا ، ولم يكن يسمع أثناء سير الجنـــازة سوى بـكاء الباكين وزفرات الحزن المنبعثة من اعماق الأفئدة رجالا وسيدات، شبانا وشابات ، كلهم يبكى شباب الزعيم ووطنيتـــه ، فكان هذا الاحتفال الرهيب أعظم وأروع جنازة فى تاريخ مصر الحديث .

ولقد تأثر حافظ بك ابراهيم شاعر النيل بهذا الحدث الرهيب فصوره فى قصيدته بقوله :

عز القـــــــرار على ليلة نعيه
وشهدت موكبه فقـــــر قرارى

وتسابقت فيه النعاة فطـــــائر
بالكهرباء وطـــائر ببخــــار

شاهدت يوم الحشر يوم وفاته
وعلمت منه مراتب الأقـــــدار

ورأيت كيف تفى الشعوب رجالها
حق الولاء وواجب الاكبـــــــار

ثم يصور منظرا من أخلد المنـــاظر فى تاريخ المجتمع المصرى ، الذى عاش فى أسر التقاليد قرونا طويلة ــ وكان الكتاب آنذاك يتنازلون بعضهم فى موضوع تحـــرير المرأة والمعركة محتدمة بين السفور وأنصاره والحجاب وأنصاره .

فلما شيعت جنازة مصطفى كامل الشاب الوطنى الذى سقط فى معركته الوطنية وهو فى عنفوان شبابه واكتمال جماله وأزهاره عمت أعاصير الحزن مصر بأسرها ، واندفع الحزن يمشى بين الناس بعنف وحدة ، ولم يستطع انسان فى مصر كبت مشاعره ، واسفرت المرأة المحجبة لأول مرة فى تاريخها تبكى هذا الشاب الذى لم تربطها به اية صلة سوى صلة الروح الوطنى العظيم الذى تجسده وتعذب به فانشغل بالوطنية عما عداها من آمال الحياة ، فكان البكاء عليه يمثل أروع صورة للتقدير النزيه لشخص مات فى سبيل الجماهير الوطنية فى جيله وجميع الأجيال من بعده ، وأعلنت المرأة شعورها فجأة وانطلقت من أسر الحجاب !!

قال حافظ ابراهيم يصف بكاء المرأة وسفورها برغم التقاليد يوم جنازته :

كم ذات خدر يوم طاف بك الردى
هتكت عليك حرائر الاستار

سفرت تودع أمة محمولة
فى النعش لاخبرا من الأخبار

أمنت عيون الناظرين فمزقت
وجه الخمار فلم تلذ بخمار

قد قام ما بين العيون وبينها
ستر من الأحزان والاكدار

وقال أحمد شوقى أمير الشعراء :

شقت لمنظرك الجيوب عقائل
وبكتك بالدمع الهتون غوانى

ولما وصل الموكب الرهيب الى جامع « قيسون » بشارع القلعة ، اقيمت الصلاة على الفقيد ثم تابعت الجنازة سيرها (في محيط خضم من الكتل البشرية) ، حتى المدفن بالامام الشافعى .

وعندما اجتاز النعش ساحة المدفن وادخل مكان الضريح ، ووضع على حافته ، ضج المكان بالبكاء والنحيب ، فى هذا الوقت وقف الشاعر الكبير والصديق الحميم للفقيد ، إسماعيل صبرى باشا ليلقى قصيدة حزينة قال فى مطلعها :

أداعى الأسى فى مصر ويحك داعيا
هددت القوى اذ قمت بالأمس ناعيا

ولم يكد يلقيه حتى ظهر عليه التأثر الشديد والاعياء ولم يتم رثاءه .

ولم ينته الحزن ومظاهره الى حد الجنازة ، فقد أعلنت جماهير الشعب حدادها كما لو كان مصطفى كامل قريبا لكل مواطن ، تربطه به صلة الرحم . فارتدى الرجال الملابس السوداء وارتدت النساء وشاحا أسود يمتد من ذيل الفستان الى كتفه وأطلق عليه حزن اللواء ، ولأول مرة جلل الحوذية العربات بالسواد ووضعوا شارات الحداد على رءوس الخيل وعلى مقابض المصابيح ، وزينوا المقاعد بصور مصطفى كامل كما علق أصحاب الحوانيت والمقاهى صورة الزعيم فى صدر المكان .

وانتشر الحزن العميق فى جميع الأنحاء واقفرت المسارح ودور اللهو من روادها وظلت خاوية فترة بعد وفاته ، ولما غنى الشيخ سلامة حجازى قصيدة أحمد

شوقى المشهورة فى رثاء مصطفى كامل ومطلعها :

المشرقـــان عليـــك ينتحبـــــــان
قاصـــــــيهما فى مأتم والدانى

وسجلت على اسطوانات ، أقبلت المسارح على اقتنائها واذاعتها فى بدء برامجها الفنية لاجتذاب الجماهير .

ويقول سعد زغلول زعيم الوفد المصرى فى مذكراته :

« ما وصلت الى مصر ، من رحلة تفتيش فى الفيوم ، حتى علمت فوق ما قرات ، واصبحت الناس لا حديث لها الا هذه الوفاة ، وما أصاب الناس من الفزع الاكبر من هولها ، وأكثر الناس من الاعجاب بالجنازة ، ومن كان منهم لا يعبأ بالمتوفى حين حياته ، اهتم لوفاته اهتماما كبيرا ، وعد التفاف الناس حوله وبكاء الكثير منهم علامة على تنبه الشعور الوطنى ، ودليلا على نمو الاحساس فى الناس ، وذهبوا الى أنه هو الذى أوجد هذا الشعور الشريف ونماه وافتتحت (جريدة أحمد لطفى السيد) وهى من الجرائد المخالفة له ، والتى كانت بينها وبين جرائده خلافات شديدة اكتتابا لاقامة تمثال له تذكارا لشأنه .

فهرس

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

رقم الايداع ٢٧٤٤ ـ ٨١

الترقيم الدولى ٩١٠٢ ـ ٧٠٣١ ـ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم علي لحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :
M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc. 904
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

اسعار البيع للجمهور في البلاد العربية للاعداد العادية من « كتاب الهلال » الشهري بسعر ٢٠ قرشا للقارىء في مصر .

سوريا	٣٠٠ ق.م « ثلاثمائة قرش سوري »
لبنان	٢٥٠ ق.ل « مائتان وخمسون قرشا لبنانيا »
الاردن	٢٥٠ فلسا « مائتان وخمسون فلسا اردنيا »
الكويت	٣٥٠ فلسا ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتيا »
العراق	٤٠٠ فلس « اربعمائة فلس عراقي »
السعودية	٤½ ريال « اربعة ريالات ونصف ريال »



هـذا الكتاب

مصطفى كامل مثل من امثلة الوطنية العربية متجدد الذكرى فى كل حين • فهو مدرسة كبرى الف عنه الكثيرون كتبا نشرت وقرات ، وتعلم منها الناس ما تيسر لهم ان يتعلموا عن مصطفى كامل • وهـذا الكتاب محاولة جديدة لبيان فضل مصطفى كامل وتعريف الناس ببعض ما فات المؤلفين السابقين من خصائص ذلك الرجل العظيم •

الكتاب حديث ومؤلفه من الجيل الجديد ، وهنا اهميته فهو يدل على ان مصطفى كامل لازال يفتن الاجيال رغم كثرة ما كتب عنه • انها نظرة جديدة بقلم مؤلف جديد نقدمهـا للشباب والشيوخ ايضـا لكى يعلموا ان مصطفى كامل ككل زعيم اصيل يتجدد كل يوم ويعلم الناس فى كل جيل •

وليس هذا بالغريب فان مصطفى كامل فعلا هو اول عربى احس بالمعنى الكامل للقومية كعاطفة انسانية كبرى تحـرك الامم وتصنع التاريخ ، ويكفى ان نورد هنا كلمات قالها تعرفنا بالفكر الوطنى لهذا الرجل الذى علم العرب جميعا معنى الوطن وحب الوطن •

ـ الحياة جهاد والعمر قصير وخير الناس من جاهد فى سـبيل بلاده وعمل لخيرها وناضل عن حقوقها •

ان روحي تتغذى من حب الوطن ، وبغيره لا استطيع الحياة ، اذ لا قيمة للحياة بغير هذا الحب الرائع العظيم الذى يفيض على المرء كل سلوى وكل سعادة •

